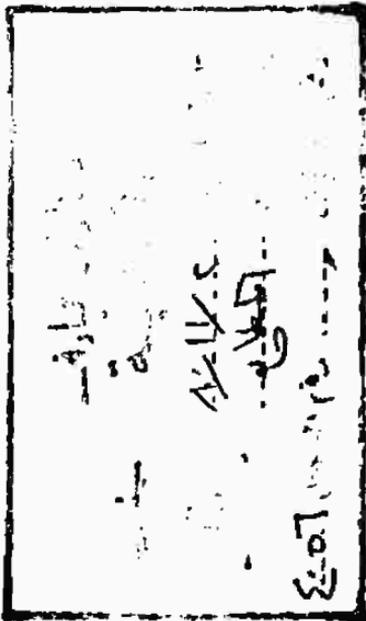


فاروق عنور شهيد

# المثلث الدامى

قصص قصيرة



دار المعارف

تصميم الغلاف : أحمد أبو عمر

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

إهداء

إلى أخي القاص الفنان  
الدكتور / عبد الغفار مكاوي  
صاحب ( البلد البعيد )

فاروق خورشيد



من وضع كتاباً فقد استهدف ،  
فإن أجاد فقد استشرف ،  
وإن أساء فقد استقذف .

عبد الله بن المقفع



## المثلث الدامى

هذا زمن الحق الضائع  
لا يعرف فيه مقتول من قاتله ومنى قتله  
ورءوس الناس على جثث الحيوانات  
ورءوس الحيوانات على جثث الناس  
فتحسس رأسك  
فتحسس رأسك

صلاح عبد الصبور

مربع الضوء أحدث حين الانعكاس مكعباً ، وأنا أشكل المربعات ، أحاول أن أجعل منها مكعبات ، والعبث لا طائل من ورائه ، فياكم عرفت أن لا طائل من العبث . . أجل فلا طائل أبداً من العبث ، ولا منطق ، ولا شيء ، إنها دوائر دوائر ، تدور حول نفسها ومن حيث تنبع تنتهى ومن حيث تبدأ تضع لوجودها نقطة الختام .

وأنا ربعت الكلمات ، فهم قد علموني أن الكلمات ينبغي أن تربيع وأن تكون مربعة ، فمن غير تربيع الكلمات لا يصح أن تجلس فى مجمع أصحاب الكلمات المربعة ، وفى زماننا لم يكن هناك مكان إلا لأصحاب الكلمات المربعة ، ولكنى برغم هذا أحاول أن أتمرد أو أثور ، أن أجعل من المربعات مكعبات ، فكنت أسقط دائماً فى فخ الدوائر الدوامة التى لا تنتهى . . فأدور وأدور ولا تخرج من

يدى مكعبات ، ولا أستطيع أن أصل إلى شاطئ المربعات الآمن ، وأحس أنني ضائع ، أنني ضعت . . .

قال صديقي الفنان . . .

- هل جربت المثلث ؟

وهزرت رأسي ، فعاد يقول . . .

- هل عرفت المستطيل ؟

وعدت أهز رأسي حتى أوجعني ، فليس أسوأ من المربع إلا المستطيل ، أما المثلث فهو شيء مجهول لي ، لم أعرفه قط .

وانغرس في قلبي سن مركز الدائرة ، ومضى يدور وقلبي يوجعني ويتزف دماً . يتمزق الثقب الذي أحدثه سن مركز الدائرة ويتسع ويتبرأ ، ودمي يتزف والدمع عند عيني تحجر لا يريد أن يظهر أمام الناس علامة ضعف وتعاسة وذلة . . . نعم حيرتني الدائرة وأذلتني ومزقت قلبي وجوفته فلم يعد يردد إلا الأصداء ، تدور فيه الكلمة فيضمها ويردها من جديد في دوائر ، ودوائر . ودوائر ، والدوائر دائماً تولد دوائر جديدة ، تبدأ صغيرة محدودة ، ثم تكبر وتكبر وتمتد وتنتشر وتنتشر إلى أن تملأ العالم كله ، والعالم - لو عرفت - مجموعة من الدوائر التي بدأت صغيرة ثم اتسعت وكبرت ثم اتسعت وكبرت ، وستظل أبداً تتسع وتكبر ، ومركز الدائرة مغروس في قلبي يدميه ويمزقه ويوسع ما أحدثه فيه من ثقب يدمي دمي النازف أبداً . . .

وأهرع إلى المربعات ألتمس عندها الأمان ، والأمان دائماً عند المربعات الثابتة الوقورة . ولكنني لا أستطيع . أكاد أفضل التمزق والضياح على الاستمرار

في الوجود المربع ، فأنا من جديد محاولاً التواجد في المكعبات ، وأعجز من جديد ، ربما ليست عندي الأداة ، ربما كانت إمكاناتي قاصرة ورؤيتي محدودة وعواطفى باهتة مزيفة ، شخصية انطوائية لا قيمة لها . . وعاد صديقي الفنان يقول :

- إذا كنت تكره المستطيل فحرب المثلث . .

ولما كنت عاجزاً عن الوصول إلى المكعبات فقد قررت أن أحاول أن ألجأ إلى المثلث . . وهكذا رأيت نفسى أندفع دون تردد ودون تحرز نحو التجربة المخيفة ، تجربة أن تكون مثلثاً . .

وهل من الممكن أن يكون الإنسان مثلثاً؟ الأمر يبدو سهلاً أول الأمر فالمثلث أقل من المربع ضلعاً ، وأقل من المكعب أكثر من هذا ، وليس في المثلث عيوب المستطيل الخاضع للدليل ، كما أنه ليس فيه ضياع الدائرة الدوارة . ولكن ما يبدو سهلاً أول الأمر يصبح شيئاً مستحيلًا حين الإقدام والتجربة . .

طرف المثلث انغرز في رأسى ومزق جبتي وقفز إلى محي ورأسى ، سنه المدينة غارت وسط تلافيف محي الكبيرة فقتل المتنبى وجرح أبا العلاء وأسأل دم كامى وأصاب ديستوفيسكى بالكدمات المخيفة ، لم ينبج منها إلا ديكتز فهو مربع وإلا موباسان فهو أكثر تريبياً وإلا تولستوى فهو مستطيل وإلا مورافيا فهو مستطيل مثله مثل نجيب محفوظ فهو أكثر منه استطالة . .

وأوجعني محي ، أعنى عقلى ، أعنى ذهني ، لا أدري فهذه الكلمات كلها ولو أنها لا تعطى معنى واحداً ، إلا أن الناس تعودوا في استعمالها أن يكونوا

مربعين ، فقدت هذه الألفاظ معناها ، وأصبح من الممكن أن يستعمل الإنسان أى كلمة منها لتدل على معنى الكلمة الأخرى دون حرج أو خطأ أو تعاسة ، فهكذا علمنا عالم المربعين ، والمربعون هم سادة العالم كله ، هم الحكم وهم المقياس وهم الوجود . . وما يقوله المربعون يسرى في الحياة مسرى الأحكام التي لا اراد لها ولا معقب عليها أبداً . .

وانغرز ضلع المثلث الثاني في وجداني ، أين هو ، أنا لا أعرف ولكني أحسست بمشاعري كلها تهتر حين أصابتها صدمة ضلع المثلث ، فثارت وثارَت واختلطت ولم أعد أدرك الفرق بين موزار وبيتهوفن ، ولا بين فيروز وأم كلثوم ، كل شيء اختلط ، شهرزاد وعاقصة وإيزيس وعشروت ، كلهن في واحدة والواحدة لا ملامح لها ، لها رأس غزالة وجسد عروس البحر وذيل لبؤة غاضبة وفم نسرجان ، وأنياب ضبع أمامه قطع من غنم ، وفحيح كوبرا رهيبه تلتف وتلتف ثم تبتلع كل شيء ، خطوة خطوة ، داخل جوفها الذي لا يمتلي ، وصاح يونس من بطن الحوت وضاعت صيحته وسط فحيح الأفعى الرهيبية ، وصرخ إبراهيم في التنور ، وأكل صرخاته فحيح النيران القاضية ، ونقيق الضفادع ، وصرير الصراصير في ليلة ربيع ، وعواء القطط ، ثمء ، ثمء ، ثمء ، والشقاء يرخى أذرعته فوق عالم بلا قر ولا دفء إلا دفء الفراش العطن المليء بالروائح الملونة . .

وامتدت الضلع الثالثة فحفرت وجودها في وجودي الحى فأحسست بنفسى أهتر مرة ثم مرة ، ثم مرات وأموت ، وقال الطبيب . .  
- سيفلس . .

وكانت المرة الأولى والوحيدة في حياتي حتى الآن ، ولكن كل شيء لا بد أن يكون له مرة أولى . . وخفت ، ملكني الرعب فابتلعت الأقراص ، وتركت فخذى وذراعى لوخزات الإبر وعشت جباناً أخشى أن أواجه العالم . . أنت لا تفهم . .

- سيفلس . .

لم أكن بجاراً في مدينة مباحة ولم أكن قرصاناً وسط غنيمة ، ولم أكن نخاساً أسوق قطعياً ولم أكن كلباً يلعب غسالة . . ولكني مثلهم جميعاً ضعت ، وبيع الضلع الثالثة من المثلث . رهيبه وحاسمة . . وقالت المرأة :  
- المسألة أن تكون أو لا تكون . .

وقال صديقي :

- ما رأيك في المثلث ؟

ونقط الصديد تملأ سروالى ، والعفن يقطر نفسه قطرات عند ضلعي المثلث الأخرين هناك عند محي المنتهك ، وهناك عند وجداني الذي تعلم العهر وأرغم عليه . . وأكلني موج البحر ، ودخلت بطن الحوت وصرخ يونس من جديد ، ولم يسمعه أحد ، وأخذت أجوس في بطن الحوت ، لا دواء ، لا أحد يستطيع أن يرحم الآثم المنتهك المقضوح . . .  
وصاحت الأصوات :

- اترك المثلث ، المثلث خطير وعبث لا أحد يستطيع أن يكون مثلاً إلا الله ، والأنبياء والشهداء والقديسين . .

ولم أفهم ، أعنى لم أصدق ، بل ربما عنيت أنني لم أراجع فضيت في

طريق لأكون مثلاً كاملاً . . .

واحتج المربعون وقالوا : هذا خائن ملعون . أما المستطيلون فاكثفوا بقرار ، ممنوع أن يكون هذا الكائن موجوداً ، ثم مضوا يتحسسون كروشهم ويتأملون شواربهم المفتولة في المرآة ، ويسمعون أصواتهم المصقولة المسجلة في أجهزة الراديو والتسجيل . . أما أصحاب الدوائر فقد رمقوا المسكين الذى هو أنا بنظرة سخرية كاملة مقبته وداروا ثم داروا وعادوا يدورون وسط ألفاظ مبهمة لا معنى لها ولا مفهوم أكثر من أنهم لا يعترفون لى بوجود ، لا أنا ولا المثلث الذى أعيشه ولا المكعب الذى كنت أطمع أن أكونه . . وقال صديق الفنان :

- لا أمل فى المكعب ، نحن شعوب متخلفة يا صديق ، أملك الوحيد هو

المثلث . .

وأطرقت برأسى يائساً تعبياً مطحوناً ، وسرت فى الطريق الذى لا عودة فيه ، طريق المثلث ، فقبل أن يكون هناك مكعب لا بد أن يكون فى وجودنا مثلث ، والمكعب شىء حضارى لا نصل إليه لأننا عجزة ولأننا نخاف الموت ، ولأننا نخشى صوت صفارات الإنذار ودوى المدافع وأصوات الطائرات حين تخترق حاجز الصوت ، وشعر شكبير حين تحلله أصوات فاهمة تبرز هاملت وماكبث والملك لير وتعاسة عطيل الأبدية . .

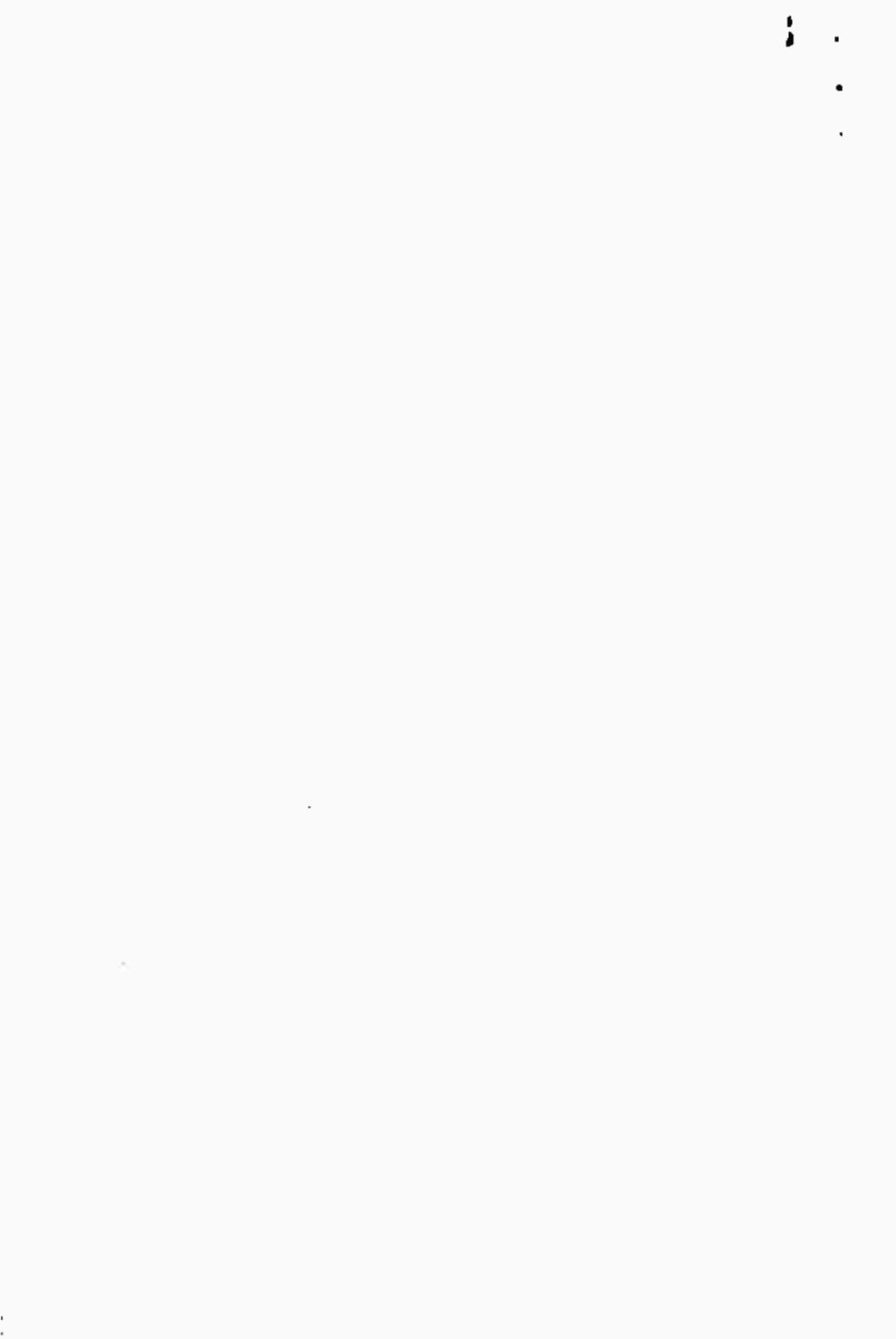
ورضيت بالمثلث إن كان يرضى لى . . ولكنه لم يرض . .

ذات صباح غابت شمس واشتد برده ، وهطلت فيه السماء مطراً ، فامتزج طين الأرض بأحذية الرجال ، وامتلات الشوارع المسفلتة ببرك من ماء آسن اسود ، وجدت نفسى مصلوباً ، رأسى إلى ضلع مثلث وكل ذراع إلى ضلع من

ضلعيه ، والناس يمرون تحت جنتي ذات الأعين الشاحصة ويمضغون اللبان  
ويقزقزون اللب الأبيض والأسمر ، ويأكلون الفشار والشبس ، ويتحدثون عن  
آخر الموديلات وهم يرمون فضلاتهم تحت أقدامي ثم يختلسون القبلات المحرمة ،  
ويتحدثون عن العلاوات المرتقبة والضرائب الجديدة ومقالات افتتاحية في  
جرائد سيارة وآخر موديلات الأحذية ، وأنا وحدي شاخص العينين بلا معنى ،  
مثلث الجسد بلا مدلول ، ويდაى طويلتان ممدودتان كالحياة ، وساقاي  
مضمومتان تجمعهما رأس مسمار واحد ، وأنا مصلوب وحدي ، وحدي وسط  
الميدان الكبير ، ويقول رجل لطفته الصغيرة :

- تساوى زاويتنا المثلث المتقابلتان في المثلث المتساوي الساقين . .

ولا يرى أحد قطرات متحجرة عند عيني ، فبقايا الذباب والحمام والغربان  
تشكل كتلة سوداء فوق الحاجبين وتحت الجفنين . . ولكنني آخر الأمر قد هربت  
من المربع .



## الزنزانة

والديك لا رنّ في سطحه  
صوت نادى اللحن وزاكي النغم  
كبر حتى خف من صدحه  
من نام في الكوخ ومن لم ينم  
ورتل الأنغام في صبحه  
يُطرى بها النور، ويهجو الظلم

محمود حسن إسماعيل

علمنا في الليل عالم غريب ، لا يعرف الظلام ، فعالمنا في الليل دائماً عالم  
مضى ، أهدنا يأخذ نفساً من سيجارة فيضيء كل شيء حولنا حتى حديد  
الشباك الصغير الصدئ ، يبدو كشيء مبهم ولكن محدد واضح مبين . .  
ويهمس أبو سريع . .

- سيجارة حقيقية ، وكاملة ، قلت لكم الشاويش يعرفني ولن يغش في  
صنف السجاير والأفيون . . ويتهد ، ويملأ جو الزنزانة شخير صدره أرقهه  
الدخان والمعسل والحشيش ويقول :

- المعلوم - بحكمه المعلوم ، مسكين له سبعة من الأولاد ، ماذا يفعل هذا  
المسكين لياكل الأولاد ، ويروحوا إلى المدارس ، ويدخلوا السينما . .

وتبص سيجارة ، يمتصها في شراهة ، الولد برعى ينزوى في ركن الزنزانة الضيق البعيد ، ويقول :

-- هل يريد أحد أن يخمس ، هي من بقايا سجائر الأمس وليست سيجارة حقيقية ، بل معظمها قش ولكنها دخان والسلام .

ويصمت الكل وهم ينظرون إلى يده الممدودة في عطاء ، في آخرها بقايا عقب من سيجارة ..

وتمتد يد معروقة تأخذ العقب ، ويسود الصمت لحظات ، لاشيء إلا تردد الأنفاس من سعال أبي سريع وهو يخرج سيجارته الحقيقية من فمه يستمتع بها وحده ، ثم يقول عوض :

- تشكر يا برعى ، السيجارة حلوة والنفس تمام .

ويقول برعى :

- أعطها لمرمى فهو إلى جوارك ، ومازال فيها نفس أو نفسان ..

وتنتقل السيجارة ويبص طرفها المشتعل بين الحين والحين والصمت يملأ الزنزانة وشخير أبو سريع يغطي صوت الأنفاس المتخافتة المريضة ..

ويأتي سعال متقطع من عبد الحميد يبدلته المكرمشة وياقته المعوجة وربطة العنق الزائفة تحت الياقة ، ويهمس في صوته الرفيع :

- هل تمكث هنا كثيراً . . صقت بكل شيء ، أريد أن أنام ، ولا أستطيع

أن أنام ..

ويضحك برعى ضحكة خشنة ويقول :

- الأفندي ضاق بجلسة المجرمين ، هل عند أحدكم حكاية تسليه .. ثم

بصرخ فجأة وهو يقول :

- كادت السيجارة أن تحرق شفتى ، نطفئها والسلام ..

ويسكت الكل وعيونهم ملتصقة ، ويموت ضوء من الزنزانة ولا يبقى إلا

بصيص سيجارة أبى سريع بطرفها الملتهب كأنه عين ترصد كل شىء ، وترى

كل شىء .. وتفهم كل شىء ..

وينبعث بكاء خافت حزين من طرف بعيد ..

ويصرخ موسى :

- قلنا لك ، لن يأكلك أحد ، لماذا البكاء يا ولد ..

ويعود الصوت الرفيع الحاد العصبي يصرخ :

- أريد أن أذهب إلى دورة المياه ..

ويتعالى الضحك ، ويسعل أحدهم ، ويبصق آخر بصوت مسموع ،

ويأخذ أبو سريع نفساً من سيجارته فيضئ الوجوه الشاحبة والعيون

الشاحصة ، ويعود برعى يقول وفي صوته حدة :

- الجردل عند الباب ، أم تريد أن نذهب بك إلى الهيلتون لهذا الهباب

الذى تريده ، الجردل موجود فاذهب وكف عن الصراخ .

ويعلو صوت موسى وفيه رقة وحنو :

- لا تنضب على الصبي .. من يدري ، لعله فى الغد يصبح وكيل النيابة

الذى يحقق معنا أوربما القاضى ، قدّم اليوم يا أخ .

وترتفع ضحكات خشنة ، بعضها ساخر ، وبعضها عابث ، وبعضها

لامعنى له .. ويقول أحمد من جديد :

- لا أستطيع أن أستعمل الجردل ، لا أستطيع ، وكلكم هنا ، كلكم حولي  
في كل مكان . . .

كان صوته كالعويل ، كالبكاء ، كناية حزين ينهى آخر نغماته المريضة  
ليشوى إلى جوار المصرف الصغير ويموت . . .  
وساد الصمت وعم الوجوم ولا أحد يتكلم ، ولا أحد يتنفس كأنما الكل  
ينتظرون . . .

وصاح برعى :

- وحدوه . .

فضى صوته وحده يجوب الزنزانة كلها ثم يخرج من بين شقوق الجدران وبين  
حواجز الشباك الضيق وبين وجودنا الحى . .

وقال موسى :

- يا ابني ، أنت لا تحتمل ليلة في زنزانة ، مالك وللمظاهرات إذن ،  
اذهب إلى الجردل ولن يراك منا أحد . . .

وعاد صوت الطفل الخافت الحاد المرعوب يصرخ :

- لست أرى شيئاً ، لا أرى شيئاً أبداً . . .

وقال برعى :

- أحدكم يشعل ثقاباً . . .

وقال موسى :

- المعلم أبو سريع معه ثقاب فسيجارته أصلية ولا يشعلها إلا عود ثقاب .

وصاح أبو سريع وسيجارته يلهب طرفها المتوهج فينير الزنزانة كلها :

— طبعاً معي كبريت ، من يقدر أن يحرمي من الكبريت ، ولكن ليس هناك إلا عود واحد ، هل أعطيه لهذا التلميذ ولا أجد ما أشعل به السيارة الثانية . . هل هذا عدل يا عالم . تلميذ ، مكانه المدرسة ، أما السجن فلنا ، أما التلاميذ ففي أحضان الأمهات . .

وعلت ضحكة مكتومة ، ثم استشرت فإذا الكل يضحك ، وصاح صوت غليظ مخمور :

— الولد يريد أن يستريح ، أريحوا الولد . . أريحوا الولد . . أريحوا الولد . . .

ثم تعقبا ضحكة فاجرة سخيفة ، واشتعل طرف السيارة في فم أني سريع ، وأمسكها بيده ثم لحها الكل وهي تهوى إلى الأرض ، ثم يدوسها بقدمه في عنف ، وقال :

— اخرس ، الولد أشرف منك ومن أبيك ، خرج يتظاهر من أجلك ومن أجلي ومن أجل ما لا نعرف لا أنت ولا أنا ، وسجن ، لا سرق ولا قتل ولا حشش ولا سكر . . الولد عظيم ، خذ يا مرسى الكبريت ، أضئ له الزنزانة ليعرف طريق الجردل ، وأقسم من فتح فيه عيناً أقتله ، أخرج عينيه ، أمزق وجهه بيدي . .

وساد صمت . .

وتحرك برعى في قلق ، وتقدم مرسى وأمسك العلبة ، وقال برعى في صوت هادئ :

— يا أخ أنت رجل بين الرجال لا ترع سأعطيك بجسدي . . بوجودي

كله ، فقط لا تخف

وقال مرسى :

- الكبريت فى يدي .. تعال اتبعنى ..

وسكت بكاء الصغير .. وسكت الكل ، ووقع أقدام ، وسعال  
أبى سريع ، وسعال مريض من الخمور ، واشتعل فى وسط الزنزانة عود ثقاب  
باهت ، وقال مرسى :

- من هنا ..

وقال برعى :

- سأستر عليك بجسدى ..

وسمعنا صوت اندفاع ماء طال حبسه ، وضوء العود الباهت الأزرق يهتر ثم  
ينطفىء ..

وقال أبو سريع ..

- الليل انتصف .. الكل ينام ..

وقال برعى :

- من هنا يا أخ ..

وقال مرسى :

- سأفرد لك « جِرامى » لثنام عليه ..

وساد الظلام العميق ، ولم يعد يتردد فى الزنزانة سوى أنفاس متحشجة  
وشخير غليظ من الخمور ، وأدرت ظهرى للحائط ..  
ونمت ..

## في الطريق

وقع أقدام

وقع أقدام

لا شيء في الطريق إلا وقع أقدام

النفس مليئة بدخان غريب ، والأيدي تشابكت وظهورهم متلاصقة  
وعيونهم على واجهة المحل المضيئة المعتمة ، تبين بها أقمشة ملونة مصبوغة ، ثم  
تعم ، ثم تعود إلى الظهور من جديد ، وأنا أقف على الرصيف وتدوى خبطة  
عالية تهز قلبي في عنف ، من يدري ، لعله انفجار . فاليهود عند الأبواب ،  
الخلفية للقاهرة ، والقاهرة مدينة مفتوحة ، لا شيء يحميها من الانفجار ،  
وينقبض قلبي وتهتز الناس وتكاد تقف ، ولكن ظهورهم وظهورهن كما هي  
ملتصقة متساندة أمام واجهة المحل يعرض الأقمشة ويضيء النور ثم ينطفئ ، ثم  
يضيء من جديد . .

ويرتفع صوت وقع الأحذية ، خلقي تماماً . وأنظر في حذر ، ويتقدم  
الشرطيان ، كنفأ إلى كتف وسلاحاً إلى سلاح ، ويصبح مجنون :  
- إعدام . .

ويرفع الجنود بنادقهم ويصوبونها ثم يتزل سيف الضابط وينطلق  
الرصاص ، بعضه يصيب الحائط ورأى ، وكله في قلبي وصدرى ، وتهاوى

ساقاي وتتملق قدماي وأتهاوى وأسقط ثم أسقط إلى جوار الحائط الملوث  
بالدماء .. أبداً .. بالدماء ..

وأبواق السيارات وصفارات موتوسيكلات تسبق الموكب للزعيم وصراخ  
صفارة الإنذار ، والراديو يهتف بنشيد عن المحاربين والوطن والصمود ..  
ويقول البائع :

- عقود ، عقود ملونة من الأقصر ، بل من أسوان ، هي عقود أصلية من  
العقيق .. والظهور كما هي تقف أمام واجهة المحل تضيء أنواره حيناً ثم  
تنطفئ .. ثم تضيء وتنطفئ .. وتتماسك الأيدي وتنطبق الأصابع مع الأصابع  
ويهتر ردف ملء ثم يتداعى ردف صقيل كأنه الحلم ، كأنه شلال ماء ينداح إلى  
صحراء عطشانة تموت ظمأ .. وأحرك قدمي ثم أشعل سيجارة ويمر موكب  
من ثياب وألوان وعطور ، ويقف أمام الواجهة الملونة مع الواقفين ويهز أحدهم  
كففيه وتهز واحدة ردفها ، ويضرب بائع اليانصيب الأعمى الأرض بعصاه  
ذات النهاية الحديدية السميكة ويقول :

- ألف جنيه ، ألف لصاحب النصيب بقرش صاغ ..

ويدق الأرض ، ويدق الأرض ، ويدق الأرض .

والوجه أعرفه وسط كل هذه العطور والألوان ، الوجه أعرفه ، ويبتسم ،  
وحين أبداً في رسم ابتسامة على وجهي يكون قد اختفى وسط الزحام ، ولا يبقى  
منه أمام الواجهة المضيئة ثم المظلمة شيء ، إلا ذكريات باهتة في رأسي .. هل  
حقاً أعرف هذه الوجه ، لا أدري .. حقاً ، نسيت ، فالسن تضعف  
الذاكرة .. والمرأة ردفها يملأ المكان كله مكتزسمين ، يتضخم ويتضخم

ولا يبقى ردف أمام الواجهة إلا هذا الردف وحده ، يحتل واجهة المحل كله ،  
ويهتز فأهتز ، ويضطرب فأضطرب ، ثم يسير فأسير ، ويصيح شرطى المرور في  
بوقه المعدنى :

- لا يسير المشاة إلا حين يلوح النور الأخضر . . لأمنك وسلامتك اتبع  
إشارات المرور . . .

ونمت ، كنت واقفاً ونمت ، وتوقف الزمن ، ودقات الأعمى على الرصيف  
بعضاته فى آخرها قطعة من حديد ، تدق الرصيف وتدق . .

وعاد الغناء البشرى يتجمع أو يتللم ويغلق واجهة المحل بشىء متراص هو  
مزيج من أرداف وروائح وصدور وكلبات وهمسات ولمسات وحركة وصمت  
غريب . .

وهتف بوق سيارة ولمع ضوء مبهر وقال المنادى العجوز :

- من هنا . . اكسر يابك اكسر ، فهنا مكان لسيارتك لا تخف . . هنا

مكان ، اكسر إلى اليمين ، إلى اليمين ، إلى اليمين . .

« وزيقت » السيارة ، وصرخت فتاة ، وصاح المنادى :

- لحظة يابك ، مهلا . . مهلا . . ودخلت السيارة فى الشارع الضيق ونزل

منها فتى فاره القامة . . حليق اللحية . . غزير الشعر . . وابتم . . وتحولت إليه

وجوه وانبعثت من واجهة المحل آهة ، وتمزق قلبى . . ومضى وقع العصا الخشبية

ذات الحافر الحديدى يضرب على الأرض بانتظام . . بانتظام . .



## الكلب

المشكلة أن الكلب نفسه لا يجد الفرصة ليكتب

حكايته . .

فهو لا يكتب

وهو إن كتب لا ينشر . ثم هو قد مات

منذ أعوام وهذه الحكاية تؤرقني . ولكن كيف تستطيع أن تكتب عن كلب  
وأنت نفسك كلب . المشكلة أن الكلب لا يجد الفرصة ليكتب حكايته فقد  
مات . ولا تسألني كيف مات . فهذه هي الحكاية التي أنتوى أن أحكيها لك .  
وأنا سأحكيها سواء سمعتها أم لم تسمعها . أرجوك . لا تستهتر فحياة الكلب  
ليست شيئاً مهملاً يمكنك أن تقصيه بخرقة من يدك ثم تشرب قهوتك وتشعل  
سيجارتك وتروح تستعرض الجريدة بين يديك . . حياة الكلب شيء هام ربما  
كان أهم من حياتك أنت نفسك . . أرجوك . لا تخرجني . فلست أعنيك أنت  
بالذات ، وإنما أعني أنت أي الآخر هذا الذي يعترض دائماً . . فإذا لا مجال  
للحرج الشخصي في هذا الموضوع . . ولعل أهم ما يعرفه الكلاب في بلادنا هو  
الحب . فهم يمارسونه كيف شاءوا ، كنت تريدني أن أقول فهي تمارسها كيف  
شاءت ، ولكن مسألة الضمائر هذه عندي هو ولغو لا معنى له . . أنت تعرف أننا  
نسمى الحب في بلادنا جريمة . . ونسى من يجب زانياً ثم نرجمه بالحجارة .  
وهذا ما تفعله صيبتنا في القرى والحواري بالكلاب . . أفهمت ؟ . . هم .

أعنى صبيتنا وجيلنا الواعد ، يرجمون الكلاب بالحجارة في شغف وإصرار  
 عندما يرونها تمارس الحب ، وتنظر الكلاب في دهشة ثم في خوف ثم في ألم  
 وتجرى ملتصقة حيناً ثم تنفصل لتموت تحت ركام الحجارة ثمناً للجريمة التي  
 لا تعرف سرها ، ولن تعرف أو تفهم سرها أبداً ، فقط تموت وأجسادها مزق  
 من لحم وجلد مختلط بالدماء . . وعظام مشوهة ، حطمتها الأحجار التي رمتها  
 أيدي الصبية ، يصبحون وهلولون في فرح حيواني أعمى . .  
 وتموت الكلاب في صمت . .  
 وأموت . .

وفي قرينتنا تجمعت أكوام السباخ من روث البهائم ، جمعتها أيدي فتياتنا  
 الحلوات الشابات ، بسماهن كضحكة القمر ، وثغورهن في براءة الندى ،  
 وقبلاهن عذراوات لم يفتضهن بشر . ومعهن جمعت الروث نساؤنا المفتحات  
 الناضجات ، رجرجات أنداهن دعوة تصرخ من عالم مجهول نداء لعالم  
 مجهول ، وتنبهة حرى لا يجاوبها إلا سعال صدور الرجال قلنها المعسل والدخان  
 المغشوش وشاى ثقيل وحكايات سخيقة مجرمة آخر الليل عند دكان البقال ،  
 وكذلك جمعت أكوام السباخ أيدي عجائز النساء من قرينتنا ، متغضنات ،  
 عجفاوات ، لا يعرف أحد أعمارهن ، فأعمارهن لا تحسب بالسنين ، ولا بأعداد  
 الحفدة وحفدة الحفدة ، وإنما تحسب بالقدرة المستمرة الدائمة على جمع السباخ  
 وتكويمه ( وتقريبه ) وتعريضه للشمس ليغدو وقوداً صالحاً لأفران المنازل في  
 ليالي الشتاء . .

يجمعها ، أكواماً ، أكواماً من السباخ ، وفوقها الذباب يدور ويحط ، ثم

يدور ويحط ، ويرتفع الصديد كالستائر فوق العيون الحلوة ، ثم يرتفع ليغطي العيون بغلالات باهتة مريضة ، ونخبو العيون وتموت . .

وحين ينطفئ بريق عين الأنثى لا يبقى لديها ما تقوله ، ينتهي لحظتها كل ما ادخرته عبر السنين لتقوله ، فهي في لحظتها لا تعرف إلا أن ثيابها روث وأن جسدها روث وأن عطاء عينها روث ، وأنها تموت شابة عجوزاً . .  
وأموت . .

وكم من أسباب تجعلني أعوى ، وأعوى ، أمام شبح يلوح في منحرج الطريق ، وأظل أعوى وأعوى ، وأنبح وأنبح ، ويجاوبني عواء الكلاب في القرية كلها ، ونباحها المتصاعد من حنية كل زقاق ، ومن عند كل منعطف طريق ، وأنا أعوى وأنبح ، وهي كلها تنبح وتعوى مثلي واستجابة لى . .  
ولعوائى ونباحى . . ثم . . أجل . . ثم تصيب جيبتي طوبة تندفع نحوى فتشج جيبتي وتدفع الدم ليسيل فوق وجهى وأمام عيني وعند أذنى وفوق أنفى ، ويتحول عوائى إلى أنين موجع حزين ، ثم أختنى إلى جوار شجرة ألعق الجراح والدماء السائلة ، وأبكى بلادمع ، وأرفع نظرتى الحزينة المليئة بالدهشة والتساؤل ، وأتصفح بعيني وجوه العابرين فى صمت واستسلام ، وهم يمرون دون كلمة ودون التفاتة ودون تحية ، ودون رثاء ، فما أنا إلا كلب ، نعم كلب . .

وأموت من جديد . .

كانت الأزمة أنه كلب ذكى ، ينبح حين يرى الغريب ، وحين يقترّب من منزله متصلص ، أو حين يقتحم المكان إنسان بغیض ، ينبح وينبح ، ويعوى

ويعوى ، وحين أصل إليه وأرت على أذنيه يسكن ولكنه مع الغريب  
أبدأ في قلق وخوف وتوجس من عواء دائم لا يبرح العنق الطويل الممتد في نجد  
واستفزاز ، فليس في بيوتنا مكان لغريب . .

وحين أعود آخر النهار منهكاً خالي الجعبة ، مريض النفس ، يتلقاني بعينه  
وأذنيه المرفوعتين في ود وذنبه الدائر دائماً في تحية لا يريم ، ويدور حولي  
ويركع ، ثم يدور حولي ويركع ، فأضمه ، وألممه وأخذه بين أحضاني وأركع  
إلى جوار رأسه وأروح أقبلة وأبكي وأحس بدمعات عيون الصائمة تبلل جسدي  
وروحى وتمتلى بها نفسى كلها . . وحين أداعب بيدي عنقاً يمه حين أنها لأقبلة  
أحس به يمد رقبتة ويرفع وجهه ليتلقى قبلي وهو يهز ذيله وفي عينه سعادة غريبة  
لا يعرفها إنسان ولم أعرفها من صديق قط . .

آسف ، واعدروني ، ولكن لي مع الأصدقاء حكايات إحباط رهيبة ولهذا  
فأنا أقف عند سعادتي في هذه اللحظات القصار مع كلي المحفوظ ، أجل كنت  
أسميه ( لكى ) وأنا أحكى له تعاسات يومية ، وإحباطات وجودى ، وأنا أحس  
أنه يفهم كل شيء ويعذر ثم يرثى ، ثم يبكى ، ويتكلم كله ، يلتف ويتكوم  
تحت أقدامى ليثبت لي أن هناك من يصلى بجسده كله وبوجوده كله من أجل  
خلاصى . . ولم يصل أحد من أجل خلاصى ولو بكلمة زائفة تعبر شفاهاً باهتة  
لا معنى لكلماتها ، ولكنه يقول في صمته الغريب وضمة جسده المحدودب  
التفوق بين ذراعى ، ونظرة عينه الأسيانة الفاهمة وهزة ذيله الوفية المؤكدة أن  
الخلاص يحىء ، وإن كل شيء تغير ، وإن الحياة تافهة وإن غداً شيء  
جديد . .

- هل تريد أن تموت ..
- أبداً ولكن وفاء الكلب شيء مذهل ..
- ولكن أنت قد أصبحت أسير الفكرة الثابتة ، والكلب كلب على أية حال ...
- أنت لا تفهم .. لم يكن (لكى) كلب ككل الكلاب ...
- كل من يحبون كلابهم يقولون هذا الكلام ، وكلهم يرون أن كلابهم فوق الكلاب ، بل ربما فوق الكثير من أنواع البشر ...
- وإذن ...
- لست أدري ، وإنما تركت هذا لك ، فهل مازلت تعتقد أن وفاء كلب شيء مذهل ..
- إن الوفاء شيء مذهل سواء كان مصدره إنساناً أم كلباً ، كلاهما سيان ، المهم هو الوفاء ...
- فالكلب عندك كالإنسان ...
- لا .. وإنما الكلب عندى أكثر فهماً وصدقاً من الإنسان ..
- ربما وافقتك ولكن .. ماذا عن (لكى) ، حدثنا ولا تحف ، فلربما أحسست أننا نفهم ..
- لست أدري بإسادة هل تفهمون أم تعذر عليكم فهم حديثي، (لكى) كان بالنسبة لى حصن الأمان ..
- ولم يجب أحد ، كان حوارى مع شيخ وتبدد أبداً لم يجب أحد ..
- فقط عندما عدت إلى بيتى فى الضاحية كان ابني ييكى وكانت ابنتى تنوح

وتلطم خديها كجدتها من قديم ..

أنفهم ما حدث ، ضايق نباح ( لكى ) لصوص المتلطقة فقدموا ضده  
شكوى لأنه يبطل أعمالهم ، وسرعان ما قدمت الشرطة ، وأحاطوه ، ونبح  
وجرى وفي عينيه تساؤل . ثم نبح وجرى وفي عينيه دهشة ، ثم نبح وجرى وفي  
عينيه ذعر ، وانقض عليه الجمع وأحاطته الحية وانطلقت رصاصه وهوى ،  
وذعر الأطفال .. ومات صوت كان يصيح وينبح حين يقدم غريب ، حين  
يصبح شيء في غير مكانه ، حين يفتح من لاحق له مكاناً في حمى  
مصون .. ومات ...

وبكى الأطفال ...

ومت ..

ألم أقل لكم إن حكاية الكلب لن تستهويكم أبداً ، وماذا فيها ؟ إن كلباً  
مات ، وماذا يعنى هذا ؟ آلاف الكلاب يقولون ما يبلى عليهم ، لأن كلباً نغمه  
نشار .. فحوصر ومات ، تهتز قلوبكم ، ما أرهف قلوبكم إذن ..

أتحدثوننى عن الأطفال ؟ .. وما علاقة الأطفال بالموت ، كلب ومات  
قتلته الشرطة لأنه مشاكس ، لأنه يعوى دون إذن ، وينبح حين لا إذن  
بالنباح ، أليس كلباً سيئاً وقيئاً إذن ، كلباً استحق الموت ، رصاصه بين العينين ،  
ويهوى ويصبح الجسد الحى الصارخ بالدفء والحب كماً مهلاً يحمل إلى عرين  
الأسد أو النمر أو الدب فى حديقة الحيوان ليقتات به مهرج يسلى الرواد يوماً  
أو بعض يوم .. ويقول أطفالى :

- أين ( لكى ) .. كم كان .. وكم كان ..

وأصمت . .

وأموت . .

ويقول شيخ الحفراء في قرينتنا . . .

- الولد عويضة يضايق العمدة ، ديته قرش صاغ ، رصاصة . . أجل . .  
ثمته رصاصة ، ويسكت إلى الأبد ، فقط يأمر العمدة ويتستر العمدة . .  
وفي هذه المرة أمر العمدة وتستر العمدة ومات كلب ، لم يفعل شيئاً إلا  
أنه نبح دون إذن وعوى دون رخصة وقال مالا يجب أن يقال . .  
في عينيه حب وألقة ، وهز ذيله فأفهم عذابات يومه ، وأريت عند رقبتة  
فيفهم عذابات يومى . . ثم أبتم ، ويكشر عن أنياب بيضاء حانية وأقبله فيز  
ذيله ، وتحيط برأسه خيه الشرطة الأقوياء ، وتدوى رصاصتهم ، وموت ،  
ويقول ابني الصغير . .

- يا أبى ، كيف قتلوا (لكى) ، ولماذا . . ألم يكن كلباً ذكياً وحلواً وأميناً  
وطيباً . . .

ولا أعرف جواباً ، وكيف أجيب وكل الأذكاء والحلويين والأمناء والطيبين  
يقتلون دون أن يكونوا كلاباً . .

يا عمرو الصغير ، يا بنى ، الموت لا يصيب الأشقياء ولا الكلاب  
ولا الوحوش ، الموت شئ يصيب الأحياء كلهم . . آه لو يعلمون ، ولكنهم  
دائماً ينسون ، ولكنك لن تنسى أبداً عواء كلبك الحبيب ، طبعاً لن تنسى نباح  
(لكى) عند الباب يطرد الكواء الغريب والسائل المريب ، واللص يتلصص  
بين الأشجار . . أبداً لن تنسى أنت كلبك ، وأنا أبداً لن أنسى بسمه الصديق

وهزة اللذيل والوجه يرتفع في فهم وحب واقتناع بأننى لن أخون . . أبداً لم أكن  
خائناً . ولن أخون . ويهز ذيله وعنقه يمتد ، وشفقنى عند جبهته . .  
وهو قد مات . .  
وأنا أموت . .

## وناحت دون قبر

لنفترق الآن . أشعر بالبرد والخوف . دعنا  
نغادر هذا المكان ونرجع من حيث جئنا .  
غريبين نسحب عبء أذكاراتنا الباهتة  
وحديدن نحمل أصداء قصتنا المائتة .  
لبعض القبور .  
وراء المصور  
هنالك لا يعرف الدهر عنا  
سوى لون أعيننا الصامتة ،

### نازك الملائكة في قرارة الموجة

ولم ينح على قبره أحد ، مات كما مات كل من قبله ، ولكنه وحده لم ينح  
على قبره أحد . .  
ذلك أن أحداً لم يكن يعرف أين قبره ، مات ودفن ، بل وربما لم يدفن ،  
ولكنه مات ، وشهادة من وزارة الحربية تثبت أنه استشهد في ساحة القداء ،  
وأنه رقى إلى الدرجة الأعلى أو رفع إلى هذه الدرجة ، ووجه كالح يحمل النبا  
وابتسامته باهتة ، وهو قد مات . . أجل مات . . أجل مات ولم ينح على قبره  
أحد . . فلا أحد يعرف أين قبره . . ويحي ، قل لي أين قبره فأفديه بمقل العين  
وسواد القواد وهمس القلب الذي يردد اسمه . .  
يا تعس الرمال الصماء تمتص دمه وتحفيه ثم في قلبها تلاشيه فلا يراه الكلب

اللاعق للدماء ، ويصون جسده دفناً حاراً للصحراء ، وعطاء حلواً لأرضها  
 عليها يوماً . أجل عليها يوماً تبتت الصبارة ، عليها يوماً تذكّر اسم الشهيد اخترقت  
 رصاصة حمقاء صدره وقلبه ووجوده ودمرت أحلام غده وديناه . .

وتنوح أمه حين تلتقي النبا الحزين :

- لو زوّجته ، لو تمتع بشبابه ، لو كان كأخيه صاحباً كثير الجدل . . ولكنه  
 كان هادئاً كالنسمة ، حلواً كالزهرة . .  
 - ويحى ويوح العمر كله ، كان كالنسمة الهادئة ، لا يسمع أحد له  
 صوتاً ، لا يعلو صوته أبداً . .

ثم تشرق بدمعها الحبيس فتملأ به مندبلها الصغير ، وتبكي ثم تبكي . .  
 - كنت أريد أن أخطب له ، أن أزوجه ( نعم يا أماه ) ، أن أجعله يحس  
 معنى الحياة . . ولكنه كان دائماً يتسم في تودة ويحيب في تودة ويهمس بأنه  
 لا يريد . . آه لو زوجه لاسترحت ، ولأحسست أنه مارس نصيبه من الحياة ،  
 ولكنه وحده لم يعرف معنى الحياة ، وهو وحده دفع ثمن خوف الآخرين . .  
 - لو . . . لو . . . لو

وتبكي ، وتصطبغ عيونها باللون الأحمر القاني ، لا شيء صبغها سوى  
 دماء الشهيد المجهول ، لم أكن أعرفه . . لا أنا ولا الصديق الذي صحبني بل  
 ولا امرأته أيضاً ، وبكت هي وبكت زوجة صديق وبكيت . .  
 وللحكاية أصل على أية حال . .

ذلك أننا عرفنا صدفة وفجأة أن الولد مات ، وما كان بالنسبة لنا سوى  
 الولد الصغير الخلو البسمات الصادق الكللات ، يشرب كأسه في صمت ، ويحني

رأسه أمامنا جميعاً في صمت ، ويسمع كلماتنا كأنما هو تلميذ يتعلم درسه . .  
وأمه تقول وسط الحديث كأنما تقطع رتابته المموجة :

- يريد أن يكون بطلاً . .

فتقفز أخته وهي تحمل في الشوكة بين أناملها صدر دجاجة . .

- ليس في مصر أبطال . بل هو يريد أن يبهز البنات ، كل صاحباتي  
يبهرن الرداء الرسمي وأنه ضابط وأن مستقبله لا يتحكم فيه نزوات الموظفين في  
مصلحة العمل ولا يحتاج إلى وساطة لتقله إلى حيث نراه . .

وتضحك ، وضحكها حلوة مجلجلة صاحبة ، فيها دفء وحياة ، ويشتم  
في خجل وكأنما ضبطناه يرتكب إثم الارتباط بفكرة محرمة ، ولكنه مع هذا  
يجول بعينه الملونتين بيننا في صمت ، يشرب كأسه وهو يقول في حياء :  
- أبداً لست أريد أن أكون بطلاً ، ولا أن أبهر الفتيات ، مهنة الجندي في  
بلادنا ، عار ، وأنا لا أحب العار . .

ثم يصمت فجأة ، ويدس رأسه في كأسه ولا يرفعه أبداً ، برغم حكايات  
الأم المحبة وضحكات الأخت الفاتنة المعجبة ، وبرغم أحاديثنا المتنوعة الملأى  
حول معنى الفداء ، ثم معنى الحب . ثم حقيقة الضياع . . ويقول صديقي :

- نحن في مصر لا نعرف سوى جوف الكلمات ، والحقيقة أننا نحون بمجرد  
أنفاسنا نطلقها في الهواء معنى الحياة نفسه . .

ويسود الصمت والوجوم . . والكلمات . .

وتقول أمه في صوت حاد صارخ . .

- رحل أملنا في الرجال . .

وتقول أخته وكلماتها تنساب كقطرات حلوة فوق صحن من عسل :  
 - وفيه أنا أوّمن به .. فهو كما ترون حلو ، وهو كما ترون وجيه .. وهو كما  
 ترون واعد بأمل عظيم .. ويصرخ صديق ..

- هو خدعة ، كلهم خدعة .. خدعة .. خدعة ..  
 وأسرع فأنهى الليلة الصاخبة قبل أن يجزن الملازم الشاب ، وقبل أن يحس  
 الصديق حب الأم والأخت ، وقبل أن تم القطيعة بين زوجته وصديقاتها  
 يَقْنُهَا في فراغ العقل وحب التباهي والقدرة على التلاعب بالكلمات ..  
 ومات ..

ولم يكن موته أبداً ككل موت ، فهو الموت الأعظم العظيم ، وهو الموت  
 الذي لا يعرف أحد كيف يموته إلا من عاشت نفوسهم السكينة ، وعرفت  
 قلوبهم صمت الوثائقين ..  
 أجل مات ..

وتعود أمه بين دموعها الباهتة وهي مختفية في ثوبها الأسود الفضفاض  
 تقول :

- فقط كنت أريد أن أزوجه لأحس أنه عرف الحياة ..  
 فتصرخ أخته وعيونها المحمرة لوحة من حب وحنان ، وعطاء لحب وحنان  
 ووعد مرّ أليم ..

- كنت أعرف أنه يجب صديقتي سلمى ، وكنت أعرف أن سلمى معجبة  
 به بل مفتونة ولكنه كان كالعداري حياء وصمتاً وخجلاً .. ؛  
 ونصرخ الأم فتصرخ الابنة ويبدأ البكاء ..

وتنوح ولا قبر هناك . . ويقول الرجل المربع وقد جلس على المقعد المستطيل وفي يده مسبحة ، حباتها مستديرة ، وعلى رأسه طربوش متوازي الأضلاع ولحيته المثلثة تهتر :

- إنه مع القديسين والشهداء . . الجنة مثواه ، ونعم عقيبى الدار . .  
وتعود الأم تصرخ من جديد ، وتعود الأخت تحضب عينيها بدم غريب يملاً العين كلها ، وتسح الدموع فى تدفق دائم ومنتظم ورهيب ، ويقف قلبى وأكاد أموت . . أجل يكف عن الحفقان ، يا تعس ما يدمى هذه العيون ، وما يفجر منها الدمع الحزين . . يا تعس هذا الذى يغمر كل الجمال بقبح أزلى لا يرين ، يا تعسة . .

وتهمس زوجة صديقى فى صوت حزين مهتر :

- كفى ، كل هذا لا داعى له ولا معنى له ، فن منا لا يموت . .  
ويقول الصديق :

- وهل نحن أحياء ؟ هو عاش ومات لسبب . . أخبرونا لماذا نعيش ؟  
وتجف الدموع فى عين الصبية وتهمس :

- فقط لو زوجته ، لو وجدت له صببة وبيتا ولو كان له ولد لما حزنت كل هذا الحزن المميت . .

وتصرخ أمه :

- ليس له أحد يبكيه ، ليس له أحد يبكيه . .

ويصيح الشيخ المربع :

- له الجنة ومثوى الشهداء وهذا يكفيه . .

وتجول عين دامعة حمراء دامية حزينة بكل الجالسين وتممس شفنان باهتتان من  
حزن دفين عميق :

- وكل ما يجنيه كلمات ..

السد تهدم والماء سال ، والأرض الخضراء غرقت في سيول من حقد وانتقام  
والصحراء اشتعلت نيراناً وضجت صوتاً رهيباً هو انفجار القلوب التي تصخب  
ويتخبط الحديد بالدم ، بالصدق الحلو الكامل بالموت الأزرق بالعطش الدائم  
المر ، باللون الكالحي المقيت ، ومعطف القائد تلمع نجماته وعصاه تلوح ،  
وتموت ، تموت ، تموت ..

تقدم والله أكبر ، تقدم والمجد للشهداء ، تقدم والجنة مشوى الذهبين ، وترجع  
الأرض ونحمر السماء ، والصوت يدوى ، رهيباً مخيفاً كالحلأ كالصدى لشيء  
خرافي لن يكون ، وأحتضن الأرض لاهتاً أنفاس حياتي ، نافثاً دم قلبي وأقبل  
الرمال بشفاه شوهتها الشظايا .. وأموت .. وأموت .. أموت ..

قالت وهي تبسم وجسمها يرتج كله :

- لشرب كأساً في صحة ابني ، فابني بطل ، وأنتم لا تعرفون ما يعرف ،  
لقد كلمني بالأمس من مكان ما .. هو من الضفادع البشرية ولولاه ما عبرنا ،  
أقول لكم لشرب في صحته ..

وضحكت وتأودت ، ثم شربنا ونحن ننظر إليها في انبهار ، ونديها ترهل  
وجسدها تشده مشدات سمكة وشعرها كان في الأصل سبيكة من خيوط شدته  
أيد ماهرة فوق قطعة من قماش ليخفي الشعر الأشعث الكريه ، وإهمال المرأة  
المسنة ، وكسلها الأعرج المقيت ، وفي كأس بقايا لا أشربها وليس يشربها أحد

أبدا ، فبقايا كأسى دائما مرة المذاق ، كأنها شىء حامض كربه . .  
 ولم ينح على قبره أحد . . أبداً لم ينح عليه مخلوق ، فليس لقبره وجود . .  
 وتصرخ أمه ، لا شكل لها ولا جسد ، فهي فقط أم تصرخ من أجل ابنها  
 الفقيد وتتشنج أعضاؤها فتصرخ من جديد . . ثم تتييس أطرافها ويطوف بعينها  
 نهر من دمع ، ينسكب دون توقف ، ينسكب دوماً في فيضان لا يجففه أحد ،  
 ولا تتبلع مائه رمال الصحارى التي ابتلعت دماء الولد الفقيد . . فهي أم . .  
 هل رأى أحدكم أمّاً . . ؟

ويصبح الشيخ يلف رأسه طربوش متوازي الأضلاع :

- وحدوه . . وهو وحده الباقى دون الفانين . .

ولا يرد أحد ولا يسمع أحد . .

وتأوهت حين ضمها حبيبها ، وأشرقت حين مسح دموعها بشفتيه ،

وهمست فى تحاذل وألم حزين تعيس :

- أريد أن أموت ، فهو قد مات دون زوجة أو ولد ، ثم أطبقت يديها

على رقبتة تضمه فى عنف وتفترس شفتيه بشفتيها ، لا بأسانها ، لا يكلها وتطبق

عليه وتأكله ، وجسدها كله يهترى وجود حى مريد ، يخاف الحياة ويعطى

الحياة ، وهمست بين أنفاسه اللاهثة . .

- تصور هو لم يعرف هذا ، ولن يعرفه أبداً فقد مات . .

وأطبقت عينها على الدم والدموع ، وابتلت أجفانها على صدره الحبيب

الذى لن يعود ، وأرسلت يدها تعبت فى شعره الكث ومدت أنفها يشم رائحة

عرقه الحريف وفتحت شفتيها فى انتظار قبلة جديدة صاحبة . . ثم بكّت وأنت

من جديد .. وتقول زوجة صديق :

- كف عن البكاء فهذا لن يجدى ..

ويقول صديقي وهو يهز رأسه في تودة :

- لو أجدى الدمع لَبِثَ إلى الحياة الكثيرون ..

وتعود أمه فتتوح من جديد ..

- أصغرهم وأحلامهم وأحنهم وعطر أبيامى كلها ..

ثم تبكى في صمت ..

ويلتهم دموعها وتبكي في حضنه في صمت وشعرها يغطي صدره ..

ودموعها تبلل وجهها وتتساقط فوق شعر صدره العارى ..

ماارتويناحتى بشمنا .. ومن نهمنالداثم نهرالحياة الذى يجرى مندفعاً كريح لا

يوقفها شىء ، السد هدمه حماس القلوب المتدفقة بنبض الحياة ، وماذا كان ،

وماذا يكون ، سوى من تراب ، والجبل ، أجل الجبل قعقنا ، ملأناه صخباً

بقذائفنا ، ومتفجراتنا ، وصيحاتنا المرعدة ونبض قلوبنا الآمرة الملتائة والحياة

غنت ، أرغمنالها أن تغنى ، كما تغنى الرصاصه تنطلق من فوهة ضيقة سوداء

لتنصب فى قلب يدق ، فإذا به يقف ويتدفق نهر حبر أسود نكتب منه

الكلمات ، وأنصت .. ننصت جميعاً .. اسمعوا .. أما تسمعون ، هذا زفيف

الريح العاتية ، هذا صراخ الصواريخ الملتائة ، هذا نداء الموت تلعنه دقائق

القنابل فوق الأرض الصلدة ، هذا صوت النبض يرتعش ثم يرتجف ، ثم ..

آه .. يكاد يتوقف .. نعم .. يكاد يتوقف ..

كلما مات ملك قام ملك .. والقنابل تدوى كصوت لا فكاك منه ، بأسر

الروح والنفس والقلب والوجود كله . . ونحن أسراه . . إلى الأبد . . دائماً نحن أسراه . . فما كنا إلا من الصوت ولا نعيش إلا للصوت ولا نموت إلا للصوت يغلف كياناته ويتعقبنا إلى القبر ، حين تأتي النائمات يلبسن السواد ويعقصن الشعور الملساء ويغسلن الوجوه من بقايا أصباغ ، ثم يبكين في صمت ، ويوزعن الطعام والقروش ويقرئن القرآن . . وفجأة يتذكرن الفراغ والعدم والقبر والخصوص حين يهل ميت جديد تحمله الأكتاف والسواعد ليغوص في بطن الأرض ، ويرتفع النواح والصراخ وتسمع الصوت يدق علينا أرض القبور الصلدة ، ويخترق ترابها الهش المزج الملىء بالعصارات والهوام وطحن العظام . . أما هو فلن يتعقبه الصوت أبداً ، فليس له قبر ، ليس له قبر . وهمست متهافئة بعد صراع استنفد منها كل الجهد والعرق والحب والخوف والتعاسة والرضا :

– وحين أريد أن أزور قبره . . أين أجده . .

وغطاها بذراعه فدفنت شعرها في صدره ونامت . . نامت وقد انفجرت شفتاها والتقى جفناها وانطبقت رموش سوداء حلوة ، وقطرة عرق عند مفرك الشعر . .

وقالت أمه وهي تعدل خصلة بيضاء من شعرها تهدلت من وراء غطاء الرأس الأسود المضموم في عنق :

– آه ، لو تمتع بالحياة . . لو عرف الدنيا . . لو زوجته . .

وقال صديقي في جدية وهو يظفئ سيجارته دون أن تنتهي كلها :

– كل لقدره . . كل لقدره . .

وهزت زوجته قدمها في قلق ثم نظرت إلى زوجها نظرة استئذان ووقفت  
تلملم ثوبها وتحمل حقيبتها وتقول :

- كنا نود أن نمكث أكثر من هذا ، ولكن ..

وأسرع صديقي يقول :

- نعم .. تعرفون الدكتور عباس .. ابنه استشهد ، ابنه الوحيد ونريد أن

نذهب لتعزيه هو أيضاً ..

وبكت أخته ، فجأة انفجرت ومضت تبكي .. ونهضت أمه ومدت يدها

في صمت ، لم يكن في وجهها دموع ، ولم يكن عند شفيتها تعاسة ، فقط  
كانت تقول :

- أتعناكم ..

وتهاوت من عند قدميه ومدت يدها تبحث عن الحقيقة ، فهي لم ترتو ، لم

تحس بجسدها تهمد رغباته تماماً ، إنما هو ضائع ، هائم ، يحوم حول صحراء لا

ترتوى ، وحولها أزيز من رصاص . وطلقات من مدافع ، وصراخ رهيب من

صواريخ متتالية ..

ثم مدت شفيتها وعينها وروحها ، وبكت .. وبكت .. وعند شفيتها مرارة

وفي قلبها عنف ، وفي عينها بقايا دموع .. ولكنها لم تجد القبر فاهترت وأخذت

تنوح ، ويرتج جسدها الناثر كله ، يرتج في عنف وقسوة ..

ويدها تمتد وشفاتها وقلبا وعيناها .. ولكنها لا قبر .. ترحف وسط

الصحراء ، البرد شديد ، بهز الجسد ، يأكل الأضلاع ، يقتلع كل دفء ،

وكل سكون .. كل شيء يرتجف ، ولا قبر .. لا .. لا قبر هناك ، والتوت

حول نفسها في صمت ، ومضت تنوح عليه . .  
نعم ناحت دون قبر . . فلا قبر هناك ، ولا شاهد للقبر تمسه يدها الحزينة  
البائسة المتقلصة . .



## يا على

أجبان

أجبان أنا

من يدعوني وغدا .

من يفلق رأسي وينتف شعر ذقني ويقذف به في

وجهي ! من يقرض أنفي ويصرخ في حلقى إلى

الأعماق

بأني زائف منافق .

من لي بمن يفعل بي هذا؟ فوالله لأقبلن منه

ذلك . فما كان ذلك ليحدث لولا أني رقيق الكبد

كالجمامة ، تعوزني المرارة التي تجعل الظلم مريراً

لدى .

هاملت . شكسبير - ترجمة د . القط

- يا على :

والرياح تعصف حولي في عنف وبحر الإسكندرية صاحب بتموج غاضب ،

والليل مقفر ، ولبات متباعدة لا تكاد ترسل إلا الظلال . .

- يا على . .

واقتربت من سور الجامعة ورفعت حافة بنظولوني وأنا أخوض الأرض المبتلة

وبركة الماء الآسن ، وطين الطريق الوسخ يتلعب أقدامى كلها . . وأمد ساقى فى الأرض السائخة الموحلة الملعونة . .

- يا على . .

تخلصت من خناقات البار ومعركة الأجنبي الذى كاد يحطم البار ، ومع هذا تحاصرني ثلاثة كلاب شرسة تكشر عن أنيابها وتهز ذيلها فى عنف وغيونها برغم الظلام محمرة . . وقرص القمر يرسل أشعته الكاملة وتحيط به السحابات تريد أن تحاصره ، أن تأكله ، أن تميته . .

- يا على . .

وتضخم السحاب وتمدد ثم مد غشاوات تحيط القمر ، ثم تأكله جزءاً جزءاً ، ويدوب القمر وسط السحاب الأسود ، ويسود الظلام الخفيف .

- يا على . .

وبدت الظلال ثقيلة مخيفة مرعبة ، ظلال وظلال حتى الشجرة لها ظلال وسط الليل الدامس : ما كنت أتصور أن هذا من الممكن أن يكون ، ومع هذا فلم يملأ قلبى إحساس الخوف إلا وأنا أمرت هذه الأشجار ذات الظلال السوداء القائمة . . ونبحت الكلاب وأسرعت نحوى وعدت أصرخ من جديد :

- يا على . .

ومرت عربة وتدافعت رشاشات مياه سوداء طينية ولكنى سعدت ، أجل سعدت بالأنوار والأصوات وحركة الموتور وأن فى السيارة أحياء . فسرت من جديد ، وأخذت أنحسس بيدى سور الجامعة ملاء ملح ورطوبة وأصوات الأمواج تأتي- إلى أذنى متلاطمة وأنا أنحسس مكانى وأسير ، وفى أننى رائحة

الملح .. ولم أكن أعرف من قبل أنني أسير في شوارع مدينة من الملح نعم  
فالإسكندرية مدينة من الملح ، فوق الجدران كالصدا ، فوق الأشجار  
كالأغصان الميتة ، فوق النفوس كالغفن المطرود .. وعوى الكلب وصحت :  
- يا على ..

ولم يرد على أحد ، بعد مائة خطوة عمود نور جديد أسير ، يرسل إشعاعاً  
وسط الظلال ربما ينير لي الطريق لأعرف كيف أسير ، فبالأمس أمطرت  
فتكونت في كل خطوة بركة من ماء مهمل ، ومساحة من طين لزج خائن  
مخيف ..

ثم بدأ القمر يشرق من جديد بعد أن قهر السحابة وامتد في الشارع شعاع  
مضىء حالم حلو ، ينير لي كل الطريق ، ومع هذا وجدتني أصرخ كالمعتاد .  
- يا على ..

وكالمعتاد أيضاً لم يرد على أحد .. وأنا كنت أعرف أن علياً - خفير  
المنطقة - قد تذر منذ ساعات بالبطاطين الدافئة ونام ، ومع هذا صحت بملء  
فهي :

- يا على ..

ثم ساد الفراغ ، دقائق تمر وأنا أنقل أقدامى وسط الوحل حتى أصل إلى  
الرصيف ، ثم أسير ويدي إلى سور الجامعة ، ولا نائمة إلا صوت هواء هادئ  
رزين ، وساعتها عرفت أن البحر كف عن غليانه وامتد كبساط رتيب لا شيء  
فيه إلا الظلام ، ويدي تتحسس مبنى الجامعة وأنا أسير ، وفي كل خطوة  
يتكاثف الظلام ويتكاثف ، ثم تبدأ أشباح الليل البارد في الظهور وأصبح :

- يا على . .

ولا يرد على أحد ، ولم أكن أنتظر رد أحد ، فقط أصبح وسط العتمة والبرودة والظلام :

- يا على . .

ثم أسير من جديد . . ومع هذا يأتي لي صوت البحر رهيباً ومستمراً ورتيباً ولا أدري من أين تجيء ، ولكنه يملأ الدنيا حولي بانتظام ورتابة . . وأنتهى من سور الجامعة وتطالعني المنازل ، كلها مظلمة معتمة ، لا ضوء في نافذة ، ولا شعاع في أى « بلكون » من « بلكونات » الواجهات التي تعمر صدر العمارات كأنها الأنداء ، كأنها الوشم ، كأنها الوجود الحى ، ولكن هذا صوت موسيقى من راديو عتيق ، كله شوشرة ، كله تقطعات ، ومنه تنبعث موسيقى حاملة أسبانية . . وأنا أسير . . وثمة شيء أسود كثيف يجذب أشعة القمر فيخفيها ويسود الظلام أمتار الطريق المقبلة فأصبح :

- يا على . .

ولا يرد على أحد . . وأنحنى إلى اليمين فأمرق في الزقاق المظلم المعتم ، ثم أتحمس طريق نحو البيت الثانى إلى اليمين ، وتصدم قدمى صخرة مجهولة في هذا المكان وأكاد أصبح وأصرخ ، ولكنى أجمع كل صراخى وصيحاتى في كلمة واحدة يقولها فى فى وهن :

- يا على . .

ومن جديد لا يرد على أحد . . وتمر سيارة كأنها تجرف الأرض جرفاً فيهتر كل ما فى الشارع من ماء تحت إطاراتها . ثم ينبع كلب من بعيد وحين أصبح :

- يا على ..

لا يرد على أحد ..

ولكنى أدخل ملفوفاً مرتجفاً من البرد الغليظ مدخل بيتي الصغير في الحارة المظلمة الباردة المتفرعة من الشارع الذى يحاذى مباني الجامعة وأحس الدفء ..

وأصبح من جديد :

- يا على ..

ويطالعنى سكون ورائحة ملح وعدم ، ويختفى الريح ، وتابغى أصوات سيارة مسرعة ، وتروح رائحة الملح التى تأتى من البحر وتختفى ، ويصدمنى دفء غريب وأصبح :

- يا على ..

وأصعد السلام المتآكلة ، وكل منها تنن وتصرخ ومن الخارج يأتى صوت سيارة تقف مرة واحدة فى فرملة ملعونة حاسمة ، ثم يسود الصمت .. فلا نأمة ولا همسة ، وأصبح وسط السكون :

- يا على ..

ولا يجيب ، ويصدمنى دفء المنزل فأنزله حافة المعطف وأتنفس فى هدوء وأسمع صوت التنفس المنتظم لمن يملأون الحجرة ، وساعتها أتذكر أنهم كثيرون ، فبرغم الشتاء أجرنا الحجرة لكل من أراد من الطلبة العرب ومن الأجانب ، وهمست بينى وبين نفسى :

- يا على ..

ثم خلعت حذائي ودخلت في حذر وأنا أمسك الفوطة حول وسطى ترنج  
بعطايًا رواد البار في هذه الليلة المعتمة الباردة . . أحدهم الليلة لم يكن من  
الإسكندرية ، إنما كان يشرب بكثرة ويهود ورقاً أمامه بحروف متعجلة سوداء ،  
وأعطاني بقشيشاً ضخماً وقال :

- في صحة الإسكندرية عروسة كل البحار وكل العصور . .

وأنا أهتف :

- يا على . .

ولا أكتمك أنني شربت ، لا يمكن أن يشرب غريب نخب مدينتي وأنا لا  
أشرب ، وحين دفع حسابه وانصرف ، سرت أنخطب بختاً عن منزلي وأنا أصرخ  
وسط الليل الصامت المعتم اليبيم ، قره يجتني خلف السحب الغامضة :

- يا على . .

ولم يرد على أحد . .

وكان الأولاد نياماً ، والدفء يملأ الشقة كلها وأنا أدخل متلصصاً  
كاللص ، ومن الخارج يغمر نور القمر - الذي تحرر من كل السحابات - الكون  
كله ، ورحت إلى سريري وأنا أهمس إلى نفسي في صمت مخيف :

- يا على . .

وحين وضعت البطانية الدافئة حول رأسي أغلف بها وجودي كله وأستشعر  
الدفء كنت أهمس لنفسي في صمت :

- يا على . . .

ونمت . .

## الموردة

« قالت سيدتها وهي تكفكف دموعاً تريد أن  
تنسجم وتثبت صوتاً يريد أن ينفطر ، لقد  
أكرهت خديجة إكراهاً على الزواج ، ومس  
حياءها النقي ونفسها الطاهرة منه دَنَسٌ ، لم  
يستطع الحب أن يغسله ففلسه الموت - قال سيد  
خديجة : وصنع الله لأبويها : فقد كتب على  
محبوبة أن تطوف ما عاشت بالدور نصنع لأهلها  
الحزب وكتب على شعبان ألا ينظف يديه ولا ثيابه  
من الطين »

د . طه حسين في « المذبذبون في الأرض »

لم يكن في الموردة أحد من الرجال ، فلم ترس أى مركب منذ الصباح  
الباكر جداً حين أقلعت مركب أحمد أبو إسماعيل محملة بزكائب العدس ،  
وعبد الله الأسمر المقتول العضل يجر حبلها على الشاطئ الممتد ، وقدمه تغوص في  
الطين ، والحبل يغوص في لحمه الأسمر وهو يدك قدميه دكاً ويمضى ، وقد مات  
أحمد أبو إسماعيل وهو يفرد الشراع ويقف إلى جوار الدفة ، والمركب الثقيلة  
تتحرك في بطء تشكل هممة غريبة لا هى غناء ولا هى كلمات تشجيع ولا هى  
أى شىء ، مجرد هممة وهو يدور بكفه الأسمر الغليظ فوق جبهته يزيح عرقاً

منهافناً يروح مع نسمة الصباح الرطبة ، ثم تمضى المركب ، وتختلف الموردة خالية إلا من بقايا روائح ، وصخرات ملساء وحفيف الماء وبقايا همس قديم لا أحد يعرف سره ، ونقيق الضفادع الخافتة وصرخات الصراصير وحمأة الأشعة الصاخبة لشمس مقبلة تنذر بيوم قاتظ ، ككل يوم قاتظ فوق الموردة الخالية إلا من الفتيات يرفعن الثياب في حذر وهن يدلفن إليها يفسلن من الماء الأسود وبقايا قطع الصابون ثياب الرجال والنساء ، وبقايا ليالى الأسبوع الفائت كله ، بقايا فيها معزة وفيها شقاء وفيها عبث الأطفال وضرورات الحياة الملحة . . وقالت خديجة وهى تفرد ما معها من ثياب فوق صخرة متآكلة صفراء :

- ذهب زوج أُمى إلى البندر وسعود بصفقة جيدة فهو يريد أن يبيع ما صنعتته من مناديل « الأوية » ، ويظن أنه بعد الحرب سيحصل على أثمان أعلى . . من يدري ؟ ربما عاد لأمى بالشال . . وربما عاد لى بقميص جديد . . وتنهد . . وعادت تغمس ما بيدها من ثياب فى الماء المتدفق تحتها عند الموردة . . وأخذت تضم الثياب فى قوة ثم تفردها ثم تضربها فوق الصخرة فى عنف ، وقد راحت فى حلم قديم عتيق . .

وكانت زينب كعادتها تجمع الشعرات البيضاء تحت الطرحة السوداء فى حركة دائبة مستمرة وعيناها الملونتان تتأملان سيقان الفتيات ، تركز بصرها على سماعات الأرجل . . فعندها اعتقاد راسخ قديم أن سماعة قدم البنت تشى بأدق ما تخفيه ثيابها من أسرار عن حقيقة جلالها وأنوئتها وعطائها ، وهى كانت تختبئ لسيد ابنها ، سيد الذى عاد من الجيش فى فارغاً يملأ وجهه شارب أنيق كشوارب الأفندية فى البندر ، ويرتدى ستره كستراتهم بل يتحدث مثل

حديثهم ، كان لابد لها أن تزوج سيد وأن تفرح به ، وكان لابد لها أن تختار الزوجة بنفسها قبل أن تحطفه واحدة من نساء البندر أو أن يخطئ الاختيار فيقع في فتاة لا يكشف وجهها عن حقيقة ما تملك من عطاء للرجل ، فسيد هو سيد الرجال ، أليس ابن سي عبد الظاهر ، خير الرجال في كل مجلس وفي كل فراش . .

وتعبر حمرة خاطفة وجتتها الساحبتين وتطرق إلى الماء بنظرها كأنما تدفن فيه نجسها وأحلاماً قديمة سعيدة شيقة مات منذ زمن بعيد ، منذ حمل لها جثمان أبو سيد ، نعم جثمان سي عبد الظاهر مسجى مفتوح العينين فاغر الفم وقد اخترقت رصاصة غادرة صدره القوي العريض . .

ورفعت عينها المتعبتين تنظر إلى حيث اختفت المركب المحملة بالعدس ، هي تعرف وكل من في القرية يعرف أن اليد التي أطلقت هذه الرصاصة كانت يد أحمد أبو إسماعيل ، وهي تعرف وكل من في القرية يعرف أن بندقية أحمد أبو إسماعيل التي تحتبى في قاع سفينة الكبيرة والتي لا تخطئ هدفها أبداً كانت مأجورة لعبد الستار . . عبد الستار . . عينه كعين الصقر ، ونظرته كمنظرة الطاووس ، ويده في فتحة الجلباب الصوف الأنيق ، وعند رأسه لبدة بيضاء لامعة . . ومع هذا فهي رفضته . . ليكن عبد الستار فتنة نساء القرية ، وفارس الغوازي على أطراف البندر ، وليكن أخاً لسي عبد الظاهر ووارث الفدانين بعد موته ، فكيف كانت ستعرف أن عقمها سيجر عليها الضياع والجوع بعد موت عبد الظاهر وبعد رفضها كل محاولات عبد الستار . .

وتنهدت . . ومدت يدها تغمسها في الماء أمامها . . وعيناها زائفتان لا

تكادان تريان شيئاً مما يحوطها وهي مغروسة القدم في الموردة . .  
وعادت خديجة تقول وصوتها صايح فيه طراوة السن ، ونداوة الصبح  
وحلاوة العذراء المتفتحة :

- وطلب منى أن أصنع مناديل أخرى ، حتى أستطيع أن أجمع ما أشتري  
به فستان الفرح . .

وضحكت . . ونجاوبت الفتيات عند الموردة مع ضحكها ، فتناغمت  
أصواتهن وتآودت واحتفت أصوات الضفادع والصراصير فقد طلع الصبح  
ونور . . وبدأت العربات تسير في الطريق الضيق خلفهن ، تحمل خضار الحقل  
إلى المدينة القريبة . .

ووقع حوافر الجياد يرح الأرض في نغم موسيقى مع سهيل الخيل وعبث  
أعناقها بالجلالجل النحاسية المعلقة بها ، ويصبح حوذى .

- صباحنا جميل وصايح كالوجوه الحلوة الصابحة . .

وتتناغم الفتيات في ضحكات عابثة ماجنة حية حلوة دافئة . .

وتطرق زينب برأسها في حزن ، هي وحدها التي لم تعد صابحة ولا جميلة  
ولا شهية ولا كالندى المتفتح أو كطرح الأرض السوداء في أول العطاء عندما  
ينور حقل البرسيم . . يشي بعطاء سخى يحيل الأرض السمراء إلى خضرة  
يانعة . .

ومسكت يدها خصلة الشعر البيضاء الثائرة لا تريد أن تختفى ، وأعادتها إلى  
مكانها خلف الطرحة السوداء ، وعادت تغمس يدها في الماء ترح قطعة القماش  
في يدها رجاً ، وهي تتلمس باليد الأخرى قطعة الصابون الذائبة عند الحجر

الأملس ، وفي بطء انحدرت دمعتان على خديها . . في صمت مرير . .  
 كان لها الفستان ، فستان الفرح ، يوم لبسته ظلت القرية كلها تتحدث عنه  
 وعن الزنر الذي يرتج مع كل حركة من جسدها البض ، وعن الضوء ينعكس  
 ويتموج ويكتسى ألف لون وينير مع خديها مختلطاً بحمرتها ويتناغم مع عينيها  
 متحرراً بزرقتهما الصافية . . أجل وليلتها . . لا . . لا تريد أن تذكر هذه الليلة ،  
 لا الليلة ولا ما دار فيها من أحداث ولا ما جرى فيها من أحداث . .  
 وأحست بحمرة تملأ وجنتيها وتلهب وجهها كله ، فعادت تطرق من جديد  
 وهي ترفع إصبعها تمسح الدمعتين في بطء ، وشروود .

وعادت خديجة تقول والعربة تتعد بضجيجها وصهيل حصانها وصوت  
 جلاله وضحكات الحوذى :

- ويقول إن مناديل مسعودة ، كل من رآها اشتراها ، لم يعد أبداً بمنديل  
 منها بار في السوق ويبعث وهو يقول :

- كلهم يسألون من الحلوة التي شغلت هذه المناديل . .  
 وينظر إلى بنصف عين وهو يتأجن ويهمس كأنما يريد ألا يسمع أحد  
 غيري :

- هل أقول لهم يا خديجة ، هل أقول إنها خديجة . .  
 وترن ضحكتها الحلوة الماجنة من جديد ووراءها ضحكات الفتيات  
 كأصداء لنغم جميل ، كآلاه تأتي بعد باليل في موال لصاحب صوت ممدود قوى  
 لا يرهب الليل ويمد ليله إلى آخر صوته وآخر ما تستطيعه طاقة حنجرتة وقوى  
 صدره العريض المليء بالشعر الأسود الكث . .

وعادت زينب تزيل دمعتين جديدتين وهي تشهد في حسرة ، وتلم الثياب من فوق الحجر ، وتدفع بها في الماء تبحث عن الصابونة الذائبة التي تاهت منها وهي تسمع كلمات خديجة المتأودة الحية الصاخبة . .

ودوى صوت بعيد ، فرقة عالية واضحة ، وسكن كل شيء ، همد حتى خريير الماء ، وانزلاق الثياب إلى الماء ، وحركة السيقان وسط الموردة . . صمت كل شيء . .

وأحست زينب بيد من حديد تقبض على قلبها وتكاد توقفه هو الآخر عن الحركة . . وارتجفت وهي ترفع رأسها وترنو بصرها إلى بعيد . .  
وصاحت خديجة :

- المركب نعود . مركب أحمد أبو إسماعيل وعبد الله يجرى نحونا على الشاطئ .

ثم شمل السكون كل شيء ، ومن بعيد ، بدأت المركب الكبيرة بشراعها المفروود تقترّب في سرعة ، وعند الشاطئ على امتداد البصر تعلقت عيون من كن بالمرودة بشبح أسمر يجرى والحبل على كتفه يجر المركب عائدا إلى الموردة وكان ألف عفريت يتعقبه  
وصاحت فتاة :

- بسم الله الرحمن الرحيم كأن الشياطين تجرى وراءه .

وقالت أخرى وهي ترفع بها من الماء . .

- والمركب إنها تجرى نحونا كأن ألف يد تدفعها في عنف . .

وقالت خديجة في صوت كالولولة . .

- المركب تجرى وسط الموج كأنها فرخة مذبوحة رماها من ذبجها للبحر . .  
 وشهقت وساد الصمت من جديد ، واهتز الشراع المفرد كجناح رخ  
 كبير ، واهترت المركب لاهتزازة ثم عادت تسرع صوب الموردة والحبل  
 الذى يربطها بشدها وعبد الله يكاد يجرى جرياً فوق الشاطئ مسرعاً نحوهم وهو  
 يصيح ، وكلماته بعيدة لا تصل ، ولكنه يصيح ، وهن لا يفسرن ما يقول ،  
 ولكن كلماته المختلطة المتداخلة تكون صوتاً ممدوداً عالياً كالصراخ ، كالعواء ،  
 كاللهفة ، كالنضياح . .

وعادت يد من حديد تقبض على صدر زينب حتى لتكاد تحجب عن رثيها  
 الهواء : وأخذت ترفع قامتها وهى تهمس فى صوت خفيض :  
 - صوت كالبومة . . أعوذ بالله . . أعوذ بالله . .  
 وصاحت خديجة :

- المركب تجرى وسط البحر كأنها عجل غارق ، جسده نطفو بطينة سوداء  
 كأنها عجل غارق ، يا صباح الشؤم أى والله كأنها عجل غارق . .  
 وساد الصمت من جديد . .

جئان أبوسيد ، جئان سى عبد الظاهر مسجى مفتوح العينين فاغر الفم  
 ومكان الرصاصة أسود أزرق قائم وسط صدره القوى العريض . .  
 وصاحت خديجة :

- لا تحمل المركب إلا الشر ، لا تحمل إلا الشؤم . .  
 كل من فى القرية كان يعرف أن بندقية أحمد أبو إسماعيل التى تحتبى فى قاع  
 مركبه الكبيرة والتى لا تحطىء هدفها أبداً كانت مأجورة لعبد الستار . .

وقالت فتاة في صوت معول :

- عبد الله يبكي يا بنات ، عبد الله يبكي كالنساء . .  
 ووضح الصوت لآذانهن ، كان بكاء حزيناً مفجوعاً ، دنا الصوت كأنه رعب  
 أسود يملأ الجسر الهزيل وهو يجر الحبل ويقرب ويقرب ، ويقرب . .  
 وصاحت خديجة :

- صوته كنعيب البوم ، لم أسمع من قبل صوتاً صارخاً ملتاعاً كصوته  
 كالندابات ، لا أشبع من صوت الندابات . . قلبي ينقبض ، أف يا بنات . .  
 هذا شؤم هذا شؤم . .  
 وتنهذ زينب . .

عبد الستار عينه كعين الصقر ، ونظرته كمنظرة الطاووس ، ويده في فتحة  
 الجلباب الصوف الأنيق ، وعند رأسه لبدة بيضاء لامعة ، وصوته دافئ سخى  
 دسم . . ومع هذا فهي قد رفضته . .

واهتز في قلبها شيء ، فأحست بجسدها كله يتنفض ، ورفعت رأسها تحديق  
 في السفينة المقترية بسرعة ، تميل إلى جانب وقد اقتربت حافتها من ماء البحر  
 وكأنما البحر يريد أن يبتلعها والسكون يحط فوقها ولا حركة ، وعند الشاطئ  
 يجري عبد الله وفوق كتفه الحبل وصوت صياحه يصل إليهن واضحاً جلياً . .  
 - الظرف ، الظرف ، واحد طخ الظرف ، واحد طخ أحمد  
 أبو إسماعيل . .

وصمت الكل وسكن الهواء ، وسكن موج البحر ، وسكن نقيق الضفادع  
 وصياح الطيور ، وصرير الصراصير ، وسكت حتى ضوء الشمس يتسرب إلى

الذنيا بدفء ثقيل ، وسكت وجيب قلب زينب . . . وهى تسمع عويل عبد الله يقترب ويقترب . . .

- مات أحمد أبو إسماعيل ، طخه الظرف ، يتزف دمه ، رأيت الدم يبصر من صدره ، مات أحمد أبو إسماعيل ، يا ولداه ، يا ولداه .  
ورف شىء بقلب زينب ، وأحست به يرقص فى صدرها ، ودفوف الزفاف تدق حولها ، وهى فى ثوب عرسها ، والكل يحيطون بها ، وسى عبد الظاهر بمسك يدها فى قوة وهى تتحرك إلى جواره فى خجل ، وامتلأ وجهها بدم قان أحمر ، وأطرقت وصوت عبد الله يعول من جديد ومن قريب . . .

- غادر ، كلبه ، جبان ، واحد اختفى خلف الذرة عند آخر الشاطئ وطخه ، مات أحمد أبو إسماعيل ، الدم يملاً صدره ، يا ولداه ، يا ولداه والقارب يقترب شرعاه يكاد بمس الماء ، وحركته حزينة بطيئة مخبئة قاسية ، والبنات صامتات ، والبحر صامت ولا صوت إلا صوت الدفوف وصوت سى عبد الظاهر القوى يهمس :  
- أنت دنياى وفتنتى .

والرصاصة تمزق صدره ، تتسع دوائر فوق الصدر العريض ، دوائر دوائر من اللون الأسود والأزرق والبنى القائم والجسد هامد ولا حس ولا نائمة ولا صوت .

وصاحت خديجة :

- المركب ستغرق المركب سيأكلها التيار، اثبت يا عبد الله ، اثبت

يا عبد الله ..

وبدأت تجرى ، وخلفها جرت كل الفتيات ، تركن الثياب التي كانت في أيديهن ، وقطع الصابون ، وأخذن يجرين نحو عبد الله وعبد الله بصيح :  
- التيار سيحرف المركب ، أسعفوني ، أسعفوني .. الرجل ضاع يا ناس ،  
الظرف طخه وسط صدره ودمه ينزف والرجل ضاع ، الرجل ضاع .

ليكن عبد الستارفتة نساء القرية وفارس الغوازي على أطراف البندر ،  
وليكن أخاسي عبد الظاهر ووارث الفدانين بعد موته .. ليكن .. ليكن ..  
ليكن وقلها بدق ، والقارب يقرب ، والفتيات امتدت أيديهن إلى الحبل  
يشدونه مع عبد الله ، وعبد الله ينوح كامرأة ثكلى ، وما في القارب يظهر أمام  
العين ، وسطه برقد جسد أحمد أبو إسماعيل مسجى وسط أكوام العدس  
والحبال ، ويده تتجمد عند الدفة ووسط صدره يقع سوداء زرقاء بنية نجوم  
حولها أكوام من ذباب ..

والدفوف تدوى ، والأضواء تنعكس فوق الترتير يملاً ثوب الزفاف وهو يرنج  
مع كل حركة لجسدها البص ..

ورفعت خصلة الشعر ، وتهدت ، وأخذت تغنى ، صوتها عذب صاف  
وسط الصباح البكر ويدسى عبد الظاهر تضغط على ذراعها وصوته يهمس في  
أذنها ..

- أنت لى ، أنت دنياى ..

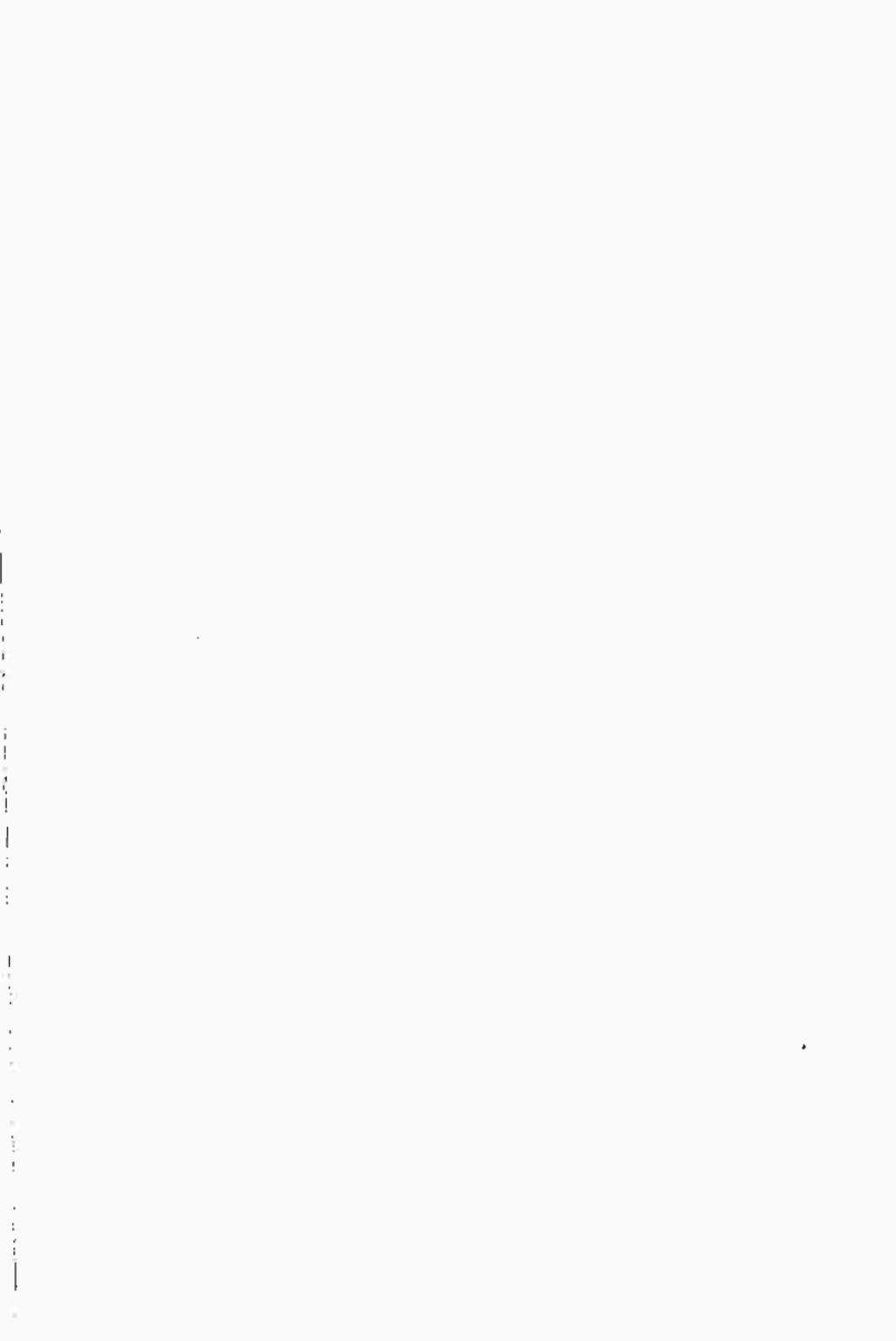
والزغاريد تملأ القرية ، والقارب يقرب ، شراعه كاد يمس سطح الماء  
وفوقه جسد مسجى وسط صدره بقعة زرقاء بل سوداء بل بنية حولها ذباب

كثيف كثيف ..

وهي وحدها في الموردة ترقص في بطء وساقاها وسط الماء وشعرها تهزه  
نسمات حانية وعطر يملأ الجو حولها ، وتغنى ، وتغنى ، والقارب يقترب ويقترب  
شراعه من الماء ويكاد ينقلب وعبد الله يجره ومعه الفتيات وكلهن يصحن مع  
صيحاته ، وهي تغنى ، والدفوف تدق والثوب يرتج حول جسدها والترتر ينور  
وسط أشعة الشمس ، وسي عبد الظاهر يهمس لأذنها وحدها :

- أنت لى .. أنت لى وحدى .. أنت دنياى ..

والصوت يملأ الموردة ويطغى على كل شيء ، ويأكل كل شيء ، وهي  
ترقص وتضحك والقارب التعس يحط عند الشاطئ وأيد تمتد ليثوى جسدها  
أحمد أبو إسماعيل وسط صدره رقعة زرقاء بنية تعسة عند أقدامها ، نصف  
جسده في الماء على شاطئ الموردة وهي تغنى عرسها من جديد ..



## الهمسات البعيدة

بك أستجير من الردى  
وأعوذ من سطوات باسك  
وحياة رأسك لا أعود  
لمثلها وحياة راسك  
من ذا يكون أبا نوا  
سك إن قتلت أبا نواسك؟  
الحسن بن هانيء

عل أحداً يجيب . .

عل أحداً يقول . .

ولكن الصمت يرين ، إلا من موسيقى من راديو عتيق واهتزازات شمعة  
مضيئة ، وأصداء أحلام وكلمات سمعها من زمن بعيد ، وما عادت الأصوات  
تملأ الحياة ، إنما بعدت وتباعدت وغدت مجرد أصداء . .  
ويح الصوت يريد أن يموت وهو بعد وليد ، ويح الصوت ليتوقف ،  
لحظات ، أقل من لحظات ، ليتوقف لأقول له كلمة . . وأبحث عن الكلمة  
ولكني لا أجدها ، حتى الكلمة سافرت من زمن ، وتشابكت مع الأصداء  
والروائح المعطرة العفنة الأسيانة ، روائح البنفسج والياسمين الميتة ممزوجة بروائح  
الريحان ، ريحان وورود للميتين ، ما أتعمس الروائح ، وأتعمس الصمت  
الحزين . .

- أرسل لى الغسيل أغسله . .

- الغسيل قدر ولا أستطيع أن أجعلك تغسلينه .

الروائح والأصوات والموت الحزين فى مقبرة مجهولة عليها صبارة ، لا راحة للصار ، ووردة تظهر على استحياء وخفية وتموت دون أن يراها أحد ، هل رأى أحدكم وردة صبار !! ؟

ونهرب ، والنيل يجرى والشراع الأبيض مرفوع والرياح تدفعه ونهرب . .

لا . . لا نريد أن نبقى ، نصطاد السمك ، ونشوى السمك على نار الخشب ،

ونعيش . . ونهرب . . لا ليس هناك حب ، ليست هناك امرأة ، ليس هناك

عطر أنتى ، بل رائحة الليل والنيل وقشر سمك وأشعة قر مريض يحتضر . . ريحان

وورود على قبور الموتى . . ريحان وورود على قبور الموتى . . ويؤذن الشيخ

عبد الستار لصلاة العشاء وخمسة يصلون وراءه وبقعة تلمع على قفاه وهو

يسجد ، والشيخ على يضحك فى سره . وهى هناك ، فى الحجرة الصغيرة عند

باب الزاوية تغلى ( دمة ) البطاطس وتحكم ربطة الرأس فوق جيبها وتتخيل يد

الشيخ على القاسية العريضة النهمة بعد الصلاة . .

والنيل مظلم كتيب ، أحس به يملاً بمائه جسدى كله يغلفه ، يسرقه من

الحياة ويفوص به إلى أعماق مظلمة مجهولة . .

وقالت وهى تمسكى بين ذراعيها ورائحة صابون معطر رخيص تنبعث من

شعرها :

- الشيخ عبد الستار رجل ولا كل الرجال ، يأخذنى بعد كل صلاة . .

ولكنى لا أعرف طعم القبلة إلا منك . .

وعريانة ترقص بين الزير وموقد الغاز ومبرير له أعمدة عالية وبق يعلو  
 الحائط المتبرئ ، ومياه تنسكب من صفيحة تحت الزير . .  
 وأكلت أذني ورائحة البصل تغشي عيني وعادت تقول :  
 - أما الشيخ على فهو ينتهز كل فرصة ليأتي إلى هنا ، يده ثقيلة وجسده  
 ثقيل ، وكلامه ثقيل ، ونظرات عينيه ثقيلة ، ولكنه رجل ، لا يتركني حتى  
 أموت . .

ومت ، التمرحنة لم يعد يزرع في القاهرة ، ولم يعد يزين رءوس القلل فوق  
 عربات الترمس ، والترام قد اختفى ، ولم يبق إلا الترولى يسير بالكهرباء ، وحتى  
 الترولى باخ وشاخ وهم . . والطفل في قلبي مات على يديها . . ورائحة  
 البطاطس تملأ الحجرة الضيقة ، وخبز يحترق ، وأنات السقف العتيق تتمطى  
 أخشابه في قلق ، وأنا مغطى بشعر رأسها الكثيف ، مزيج من رائحة العطر  
 الرخيص وجاز وصابون معطر متداول وعرق ، والشيخ على والشيخ  
 عبد السلام . . والرجل يؤذن وناس يصلون . . وعرق يملأ أجساد المتعبين  
 وروائح كريهة من أقدام عريانة لم يغسلها الوضوء ، وتلفني دوامة . . والنيل كما  
 هو مظلم قاتم ، على حافته رجل يشوى الذرة وهو يسند قدمه إلى جوار السور  
 وأنوار فحمه المتداعية تبص بعيون الموت والاحتضار ، ويصيح رجل :  
 - حتى قيوم . .

وعند القبور ريحان وورد وخوص . .  
 والصمت يطبق على كل شيء . . لا أحد يجيب . . ولا أحد يتكلم ، لا  
 . . لا أحد يجيب ، الصمت يرين ، ويهتر القارب الحزين فوق النيل الصامت

الوثيد ، فالليلة بلا ريح . . .

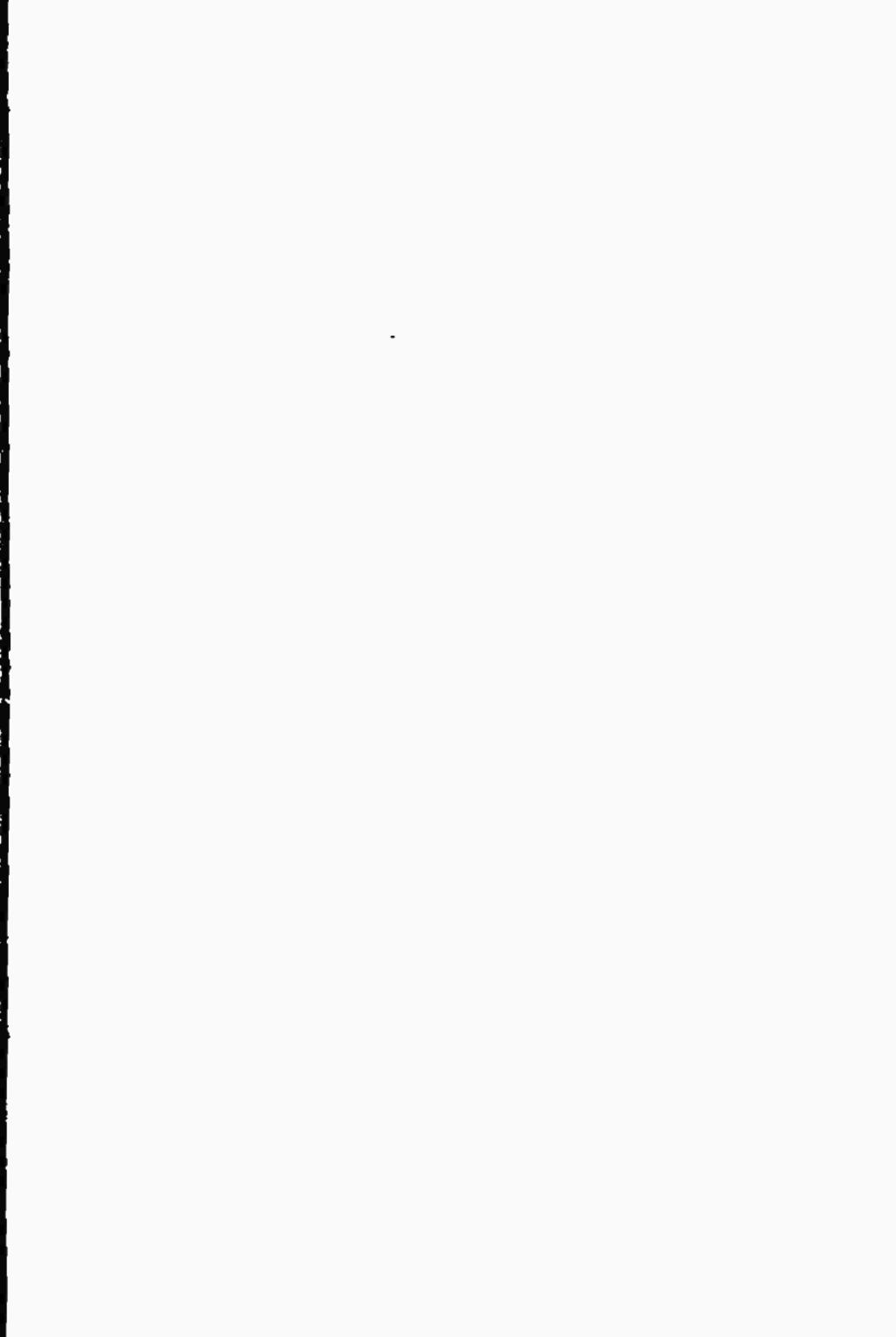
والموسيقى الحزينة بلا معنى . . . والراديو العجوز لا يكف . . . والصمت بملأ كل شيء . . . ويلف كل شيء ، الصمت يمد أذرعته كأخطبوط . . . كأخطبوط . . .

ويح الكلمات لو تأتي ، لأراحتني ، ولكن الكلمات لا تأتي ، أبداً لا تأتي . . . مستعصية كدموع شيخ عجوز ، تبلل المقلتين ولا تنساب أبداً ، على الخد المتغضن ، لعلها تخشى أن تكشف زيفها غصون السنين . . . وعلى البعد يقول المسافر أوحشنا الكلام . . . ولو يعرف مات بعده الكلام . . . وصدئ الصوت وشاخ ثم تهرأ ، وفي حفرة لم نفسه ومات . . .

ويرتفع الأذان ، وهي تضيق فتحة الثوب وتوسع فتحة العنق لتبرز خصلات تمور فوق الصدر والظهر وبين النهدين ، ثم تسوى خصلات تافرة وتشهد ، بل ربما تمت ، وربما غنت بكلمات الأذان ، فباطما سمعت الأذان . . . كأنه سائح هذا التلميذ . . . وقبلته عميقة غريبة . . . ولكنها لا تفهم كيف يضيع كل هذا الوقت في القبلات ، وهي تحرك جسدها كله . . . وهي تشعر به كالحيوآن ، ومع هذا في عينيه حلم عريق كأنه بجور بملأ الزاوية من عند الشيخ العجوز يدور بمبخرته كل مساء فتملاً الحجرة والزاوية والكتاب وكل أسبوع يأخذ نصف قرش ورغيفاً علاه العفن ، والرائحة زكية وحلوة وذقنه بيضاء ولكن في عينيه همود ، أبداً لا ينفع هو ، ربما مات منذ سنين ، برغم التهمات والدعوات وحركة يده بالمبخرة الصدئة ورائحة البخور المنعشة ونصف قرش ورغيف عفن . . .

ويل الصمت ، لا أحد يجيب . .

لا أحد يقول ، أبداً يصمتون كالموتى ويدعون الصمت يرين على كل شيء ، إلا من موسيقى مهتزة تبعث من راديو عتيق ، وشمعة محتضرة ترنجف ارتجافات الموت الأكيد ، وأحلام وكلمات تبعث من أصداء ماض عتيق ، ماض مخزون مات ولن يعود . .



## أين الحب

رأينا الحب فرأينا شئين معاً . . فجر الحياة ، وقبر  
أشلائنا . . أهر الحب ؟  
أم قوس قزح دون لون الصدق . . ؟ لون الصدق  
الدامى الحزين . .

يا عمرا ضاع بحثا عن الكلمة ، يا وزن الشعر وإيقاع الموسيقى وانسجام  
النغم . .

ومن يدري أنني أحبك ؟ . .

- أنت تدري . .

والأفلاك والنجوم والقمر وليالي الشتاء الوحيدة الباردة ، وليالي الصيف  
اللزجة الصماء بلا نغم . . .

- أنت تدري . .

وكلماتي العرجاء تعسة ، تحاول أن تجد لها مكاناً فوق الورق ، وقلمي جف  
والخبر انتهى ، والورق تمزق والنور انطفأ . .

- أنت تدري . .

وهمس الأصدقاء في حب ورحمة ، وفحيح الحقد في شماتة ونهم إلى  
الفضائح ، وليالي العجائز أمام النوافذ المشمسة وأواني القهوة الساخنة ، ومواء  
قط يتمطى في أمان ومتعة . .

- أنت تدرى ..

وتقارير الكتبة ، صناعتهم أن يكتبوا ما يسمعونه وما يرونه ليكون وثيقة  
اتهم وكلمات البواب والكواء والخفير وبائع الصحف عند باب بيتي وصبي  
البقال يحوس خلال بيتي بنظراته ، والجرسون يسمع الهمس وهو يحمل القهوة  
ثم يملاً (التقرير) بكلمات عجفاء مريضة سقيمة ، لا تستقيم لأى قاعدة ولكنها  
تحمل كل همسة وكل نأمة وكل بسة ، لعيون صارمة خبيثة متلصصة ..

- أنت تدرى ..

يا حبي ، حقا أنا أدرى فهل يدرى كل هؤلاء معنى الحب ، يا عمرا أضعاه  
البحث عن الكلمة ، وشرده السعى وراء وزن الشعر ، وبدده حب إيقاع  
الموسيقى ومزقه الحس المرهف بانسجام النغم ..

وأن يعرف العالم كله أنني أحبك ..

- ويكفيني أنك تعرف ..

- ترى هل تعرفين أنهم يعرفون ..

كل همسة صادقة بين شفاهنا ، كل اختلاجه دافئة بين قلوبنا كل ضغطة يد  
أرسلتها يدي إلى يدك ، كل عبث حلوجالت فيه أصابعي بين نهديك ، كل آهة  
خرجت من قلبك لتعبث في قلبي ، كل حب فاض من جسدي فأغرق جسديك  
عطاء وثرأ ووجوداً وحياة ، كل نشوة رجرجت جسديك كله ودارت بجياتي ورأسي  
فأدارته .. كل شيء .. كل شيء ..

ياتعمسى كل شيء يصبح نبياً مشاعراً مباحاً لعيون ملاًها الرمذ وأعمالها الصديد  
وقتل حسها العمى المطبق .. ياتعسها وياتعس حبنا ، وياتعسنا .. وياتعس

كلمة الحب . .

عريانا ، أنا وأنت ، بل عرايا ، أنا وأنت والحب ، بل عريانون أنا وأنت  
والحب والوجود والصدق . .

والبرد قارس ، وسيط الرياح تنوشنا فتخرب أجسادنا وتهدم دفء أجسادنا  
وتحيت رجوع نبضاتنا وتدفن في صقيعها الرهيب كلمات الحب وآهات المتعة ،  
وهمسات الاشتهاء . .

كل شيء منتهك . . منتهك . . منتهك . .

- وهل تعرفين برغم هذا كله أنني أحبك . . ؟

- يا تعسك . . وهل أحب أحداً غيرك . . ؟

- أصادقة أنت . .

- وهل أملك معك إلا الصدق . . ؟

- تعنين كلماتك . . ؟

- أعنيها وأعيشها وأحبها . .

- باللشك ، صنعت ضياعي ، صنعت ضياعي . .

- بل أنت الذى تضع . .

- أريد أن أصدق . .

- تصدق حيناً إذن . .

وهل تصدقه التقارير المرفوعة ، والآذان المرفهة رهاقة الإلكترونيات  
الحديثة ، والعيون المشرعة فى دقة عيون الذباب الراصد لأدق حركات  
الكائنات حوله ، والأنوف المرفهة أنوف الكلاب لا تفوتها نغمة جديدة فى لحن

الروائح المحيطة بها . . . ؟

- أنت مقبض . . .

- أنا أحبك . . .

- وهذا كله . . . ؟

- تعاسة ما نعيش فيه ، تفرض نفسها على وجودنا وكياننا . . .

- وحيننا . . . ؟

- وحيننا . . .

- فإذن . . . ؟

يا تعس من يجب بلا أذن . . . بلا ورقة محتومة عليها شهود ، بلا ثلاث صور والبطاقة وصحيفة السوابق وبصمات الأصابع . . . وإقرار من اثنين من الموظفين عليه تصديق من رئيسها وخاتم التاج ، وتوقيع الرئيس الأعلى وورقة الدمغة . . . يا تعسه ، يا تعسه . . . يا تعسه . . .

والغريبان التقيا لا يعرفان السدود ولا الحدود ، ولا الممنوع والمحذور ، يا ويحها الغريبان التقيا على الحب . . .

أنفاسها قطعة من نغم حلو مسترسل دافئ كله عذوبة وعطر وحب وكلمات ، دقات قلبها تريد أن تفيض على الوجود معنى الإيقاع والنغم ، وأيديها المحمومة تقول كلمات خرساء ناطقة ، أروع الكلمات الخرساء الناطقة . . .

- اسمك وسنك وعنوانك ووظيفتك . . . والحب يداس بالأقدام الغليظة المصمتة ، في أحذيتها قطع من حديد أصم لا يعرف ، لا يحس ، لا يدرك شيئاً . . .

- قل والله العظيم أقول الحق ..

- سيأطهم تلف القلب وتتزعجه ثم تدور به وترميه ، فإذا هوى في جسد فأر يخاف مواء قطة أو في جسد غزال يخاف زئير أسد ، أو في جسد قطة تخاف من عواء كلب ..

ويرتجف قلبي وأنا لا أملك نبضاته ، لا أملك أن أمنعها أن تسرع أو أن تتردد أو أن تتنظم ، دقات القلب ليست ملكاً لى ، يوماً ظننت أنها ملك للحب ، وعرفت حين التجربة أنها للخوف الأعمى الأصم ، يقتلها ويقلقها ويتحكم في سرعتها وبطنها ، يتحكم في عطاها للجسد الذليل المرتجف تحت نبضات القلب العظيم ، مانح الحياة ، وأسير عبودية السوط المرعب الرهيب ..

- وأنت تخاف ؟

- وأنا جبان لا أحب وقع السياط على جلدى المهلهل المتهرئ ..

- وأنت جبان ؟

- وأنا تعس لا أحب أصداء ما يدور بقلبي بعد انحنائى أمام السوط ..

- وأنت تعس .. ؟

- وأنا مخرب أخضع للأمر بالأأسير فى الشارع الذى أحب السير فيه ، وألا

أعبر فى المكان الذى تعودت أن أعبر فيه ، وألا أتكلم فى الموضوع الذى أعرف كيف أتكلم فيه ، وألا أسمع النغمات التى عشت لا أطرب إلا للسمع لها ..

- وأنت مخرب ..

- يا تعسى .. يا تعسى ، يا تعسى ..

- وأنا لا أحب أشباه الناس ..

- تعنين أشباه الرجال ..

- بل أعني أشباه الموجودات ، فنذ زمن وأنت لست من الناس ولا من

الرجال ..

وأعني على نفسي ، وأضم وجودي إلى وجودي ، وألمم نفسي كلها في دائرة  
تعبسة متهرئة خاضعة وأسكن في انتظار ضربة السوط ، ويداي تمهيمان رأسي  
فقط ، أعني عيني .. بل لعل أحمي مقلتي العينين فقط فكم أخشى الظلام لو  
فقدتها لو عميت ..

- أنت أعمى ..

ولا أرد ، أمد يدي أتلمس جينا حيث عهدته ، ولكني لا أعرف الطريق ،  
أمد يدي أتلمس عطرنا حيث شممته ، ولكني لا أعرف الطريق ، أمد يدي  
أتلمس نغمنا حيث سمعته ولكني لا أعرف الطريق ..

مع العمى ضاع الطريق ، حيث ضاع البصر ضاع الطريق .. فكل طريق  
لا يوجد إلا حين يوجد الإبصار ، والعمى حط على كاهلي فضاع الإبصار  
وضاع الطريق ..

- يا ضياعك ، يا ظلمة طريقك ، يا تعسك ..

- فأين حبك ..

- من لا وجود له لا حب له ..

- وأين حبك ..

- من لا نور له لا حب له ..

- وأين حبك ..

- من لا طريق له لاجب له ..
- وأين حبك ..
- تسألني ولست حرة لكي أبحث معك على ما تسأل عنه ، الحياة كما تعرف  
مليئة بالأسئلة ، ولو حاولت أن أبحث عن إجابة لكل سؤال ، لضاعت  
الحياة ، ولست أريد لحياتي أن تضعي ...
- وإذن .
- الضائعون ينصرفون ، الضائعون ينصرفون ..
- أصوتك هذا أم صوت القدر ...
- بل صوتي ولست أعرف القدر ..
- يا من أضاع عمره بحثاً عن الكلمات التي تاهت وسط خضم الصرخات ،  
يامن باع وجوده بحثاً عن أوزان لشعر لم يقل إلا في مدح الأمراء ، يامن أذاب  
وجوده جرياً وراء إيقاع موسيقى لا إيقاع لها إلا في أناشيد الحفاصة والانفعال  
الصاحب الزائف المريض ، يا من قتل كيانه ليكون هناك انسجام في نغم مريض  
مات من مرضه من زمن ولن يولد أبداً من جديد . . . يا أنت هل تدري أن  
أحدًا لا يجيبك . . .
- والحب .
- الحب مات .. مات .. مات . . .
- أميوت الحب ؟
- بل يموت الحب . . .
- أميوت الحب ؟

- تميته الكلمات الزائفة ، تميته التقارير المريضة ، تميته الشهوة الرخيصة ،  
 يميته الادعاء الكاذب ، يميته إن الحب مات . . .

- تيأس من كلمات . .

أضعت العمر بحثاً عن الكلمات ، فإن ضاعت الكلمات ضعبت ، إن  
 ضاعت الكلمات ضعبت . . ومت إلى الأبد .

- والحب . . ؟

- وأين الحب . . . ؟

- حقا أين حبك يا حلوة ، أين

الحب

## الصمت

... ولن يذكرنا أحد بعد حين فالصمت  
مأشنا ، والصمت ما نكون بعد حين .

قضيت عمري كله أسمع الصمت ، وساعة الغروب والشمس مذنوقة بين  
ذراعى سحابة سوداء مظلمة يتكلم الصمت فأسمعه . . . وفي الليل شرينا القمر  
ففهمنا الصمت وأدركنا معنى الكلمات التى لا ينطقها ولم ينطق بها أحد قط . .  
وتحنى جباه الرجال فى صمت وتتقوس أكتافهم . . أما النساء فكلهن عاربات  
السيقان والأفخاذ . . وأردافهن تهتر فى موسيقى صامتة تعول . . زرنج  
صدورهن فى كلمات بلا حروف ، وتفهم معنى الكلمات ونعرف مغزى  
الحروف . . ونغرق على أبواب المقاهى وفوق الأرصفة فى بحار من صمت  
عميق . .

والألوان تبهت وتختلط ، ثم تبهت وتختلط ، ولا يبقى إلا الأحمر والأسود ،  
الاثنان فى رمادى غامق ، ودخان ، ورائحة البن المحروق فى مخزن البن المجاور  
للمقهى ، وتمر امرأة تتأود فى عيبتها دعوة وعند شفتيها شيطان ، وجسدها يهتر فى  
حركة وعند وجهها إصرار صامت عنيد . . ونركع للصمت يبرز أعماقنا وما استتر  
منا وما لا نريد أن نعرفه أو أن نقوله . . فالصمت يهدد عذابنا ويحكى لقلوبنا  
الدائمة قصة أمل بعيد بعيد وموود . . وتدوى أقشطة الطاولة فوق خشبها ،

ويرتفع صوت الرد يرتج في الأيدي المعتمة ثم يقفز فوق خشب الطاولة المزين بالخطوط البيضاء والصفراء ، ويتحدث الصمت المتحدى بين اثنين يلعبان الشطرنج ، وتفرق نارجيلة ويرشف أحدهم رشفة من كوب الشاي الساخن المعبق ، ويقول الرجل بلا وجل يسرى وعين أخفتها ضمادة «لله» . . ولا يرد أحد ، يسود صمت عميق . . ويدور الجارسون بصينية ملأى بالأقداح وأوعية القهوة وأكواب الماء المثلج ، وفي صمت تدور يده تفرغ حمله فوق الموائد ، والزمام العتيق «تزيق» عجلاته فوق قضبان الصدئة ، ويقف . . وضجة من بعيد ، ثم صمت قبيح معتم ولا كلمة عند القلم ولا شيء فوق الورقة ، ولا خط ولا نقطة ، ويسود الصمت المر الأصفر كرهاً كالعدم واليأس والعقم الدائم لا يشفيه دواء ، ولا ينفع فيه تغيير الرجال . .

والطفل يجري وينط ثم يجري وينط ويصدر صوتاً من حلقه ، من أعمق أعماقه كأن الكون كله يستيقظ عند الصوت الغريب يخرج من حنجرتة مزغرداً وأشيا بالحياة لافتاً للحب والحنان والتدليل من أم معجبة وأب مفتون ، ويمضي يحجل والصرخات المتكررة تخرج من حلقه في دفعات متشابهة مولولة وعند عينيه نظرة مستغرقة أن أحداً لا يستجيب . . وأن الحنان لا يتدفق . . وأن الكون كله لا يقف لبراعته في الضحك وإصدار الصوت والقفز في الطريق . . ويمضي الموكب الضاحك المعجب ، أب وأم ووليد يلفت الحياة ويأكل الحياة ويرقص الحياة . . والحياة حوله في صمت مطبق كتيب . .

ويسرع الجارسون في بطء شديد . . حاملاً إناء النار . . جمرات محمرة من فحم صغير ، ومن نارجيلة إلى نارجيلة ينتقل إناء النار . . ويملاً الجو صوت

الكركرة . . والماء يمور داخل النارجيلات الزجاجية الملونة . . ثم يخرج الدخان دفعات من الأنوف والشفاه والصدور ويتبدد في الهواء ، كأنه لم يكن ولن يكون . . يأكله الصمت وبلاشيه فكأنه ما كان وما يكون . .

وتشحب السماء ولا تبقى إلا نجمات لامعة وسط دكنة معتمة تسود سقف العالم الأزلى الغريب . . وسقف العالم لا يهتز لأحد . . لا يغير ألوانه وصمته ودكته وعيونه اللامعة من أجل أحد . . وأنا وحدى والصمت . . ورائحة البن المحروق في الدكان المجاور ، وفتاة ترج صدرها في عنف والصبي الصغير يزحف فوق أسافله وهو يمد يده يسأل الجالسين ، ويمد يده ، وقلب يعوى في صمت ، والأوتوبيس يقف في عواء مريض . . ويتوقف الهواء فلا يتحرك . . والنسمة تموت ويسود الصمت من جديد . . والسحابة تأكل السماء كلها وتستولى عليها ، وتفرض عليها ققامتها المعتمة . ولا شيء ، لا شيء . . لا صوت . . لا صوت . .

وإنما نحن في معبد الصمت العتيق . .



## خطاب إلى صديق

ولم تصل الرسالة ، ولن تصل أبداً .  
فقد مات الكاتب قبل أن يكتبها .

أخي الصديق ، آسف عليك حين يزور الناس ، إذ يسمعون اسمك ،  
وكانهم ما سمعوا شيئاً ! عيونهم تبهت النظرة فيها وتوه ، وكأنى أكلم أصناماً  
بلا حياة ! أو كأنهم يسمعون كلاماً بلا معنى ! . أسفى عليك ! .

- تسمح يا بك إلى الداخل قليلاً ، فلست أستطيع أنا أريح قدمى . .  
وأخشى أن أدوس قدمك . .

- آسف . . ولكن تفضل ، أنت تعرف من أمامى يضغطون ، ومن يقفون  
خلفى يدفعون بكل قوتهم ، ولا مكان ! . لا مكان لشيء حتى لقدم . !  
- إذن عذراً . .

- أعرف ولا اعتذار . .

ويمضى المترو اللعين . . والصبح بعدُ طفلاً فى يقظته ، والعيون وسنانة ،  
والأيدي مهالكة ، ودفع الأجساد لين مترخ سقيم . . والروائح باهتة ، والمترو  
يمضى فى صحبه يهز الأجساد والأذرع الممتدة تتلمس ما تستند إليه والسيقان  
الملتصقة تريد أن تجد مكاناً للأقدام . . أى مكان ! . أى مكان ! أى  
مكان . ! أى مكان !

لهنى عليك ! رسالتك الباكية جاءتنى منذ أيام ، وأنا كلما قرأتها ملأت عني  
دموعاً لا تريد أن تظهر للناس ، فهى ضعفك وضعفى ، وبكى وويحك من  
الناس ! لو يعلمون هو ضعفهم أيضاً ، هو تسهم وخزيم .. ولكنهم  
لا يعرفون ! أبداً لن يعرفوا .. كيف يعرفون والرخ يفرد جناحيه على المدينة  
وسطها بيضته العالية القاعة المقيته ، يثور إن أهدأ اقترب من البيضة ، يثور إن  
أهدأ مسّ البيضة ، يثور ، ويحاف .. أنت تعرف ، هو جبان .. نعم .. الرخ  
جبان يخشى أن يفتتح القشر عن البيضة فيفوح العفن ، ويظهر العفن وتزكم  
رائحته العفنة الأنوف المخدرة بالعطور المستوردة .. !

- يا أستاذ ، من فضلك : أضع الشنطة فوق الرف إن لم يزعجك ..
- لا ، وعفواً ، هاتى الشنطة يا مدام ، أحملها أنا دونك ..
- لا ، وكل ما أرجوه هو أن تضعها فوق الرف فهو بعيد عني ..
- أمرك ، هاتيا ، فالرف قريب جداً منى ..
- شكراً يا أستاذ ..
- عفواً ، يا آنسة .. آسف .. عفواً يا مدام ..
- لا ، بل آنسة ..
- إذن لم أخطئ ..
- أبداً ..
- تقدمى إلى هنا خطوة تسريحين ..
- أشكرك .. فعلاً .. هذا أحسن .. أشكرك ..
- ثم تردد عجلات القطار فى انتظام رتيب ..

- أشكرك .. أشكرك .. أشكرك ..  
 وأهمس لنفسى وأنا أطرق فيندس رأسى فى كتف رجل يقف أمامى ..  
 - أرحمك .. أرحمك .. أرحمك ..  
 ويمضى المترو .. ونجوى الحقول الخضراء ، والمنازل الواطئة .. وأعمدة  
 التليفون .. وأناس يقفون عند محطة لا يقف عندها المترو العتيد المندفع ..  
 يصخب ويمجرى ، ويلهث ويمجرى .. ويندفع ..  
 ويزور الناس حين يسمعون اسمك ، كأنك لعنة تقود إلى قدر مخيف ، كأن  
 حروف اسمك لعنات ينتظرها رجال مجهولون يقفون خلف المقاعد ، أمام  
 المقاعد .. حول المقاعد ، ليدوا أنيابهم العفنة إلى كل من سمع الحروف  
 ولم يستنكرها . ، إلى كل من سمع الاسم ولم يزور ، إلى كل من صافح سمعه  
 اسمك ولم يصرخ .. لا .. لا .. لا أعرفه ..  
 والمترو يمضى فى صخب يصيح ..  
 - لا .. لا أعرفه .. لا .. لا أعرفه .. لا .. لا أعرفه !  
 وفى الركن المتزوى المضغوط همس غريب ...  
 - ألا ترى .. ماذا يظننا هذا المأفون ، عميا لا نرى .. ؟  
 - ماذا تعنى .. ؟  
 - الولد الخنفس ، صاحب الشعر المنسرح الطويل ألا تراه .. ؟  
 - أين .. ؟  
 - هناك عند الشباك ..  
 - لست أرى إلا مزيجاً من أجساد وألوان ثياب وحركات رموس ..

- ذلك أنك أعمى لا ترى .. غيرَ لا تفهم ..

- فاذا أرى ؟ وماذا أفهم ؟

- الولد الخنفس ..

- ماله .. ؟

- يحتضنها كلها .. ألت تراه ، إنه يحوطها بذراعيه وساقيه ، ويدس

رأسه بين خصلات شعرها كأن أحداً لا يراه . !

- استغفر الله يا رجل .. هي الزحمة ..

- زحمة .. !

والقلم لا يستطيع الكتابة ، فهي تمسكه بيدها لتضيف إليه من شفتها رحيقاً

من عبق غريب لأرض أحلام لم يطأها قدم بشرى ، وهمسُ شفتها يُميتُ

الكلام عند شفتي ، والقلم يتعثر ويصمت ، ويكف .. وأنا لا أدري .. أين

أنا ؟ . شفتاي تفوصان في شفتها وجسدى كله يرتجف ، فأنا ملكها ، هي

تمتلكني كلي ونهمس .. !

- لماذا القطار ؟ ولماذا هذا السيد ؟ أرجوك كن معي .. فأنا أريدك ..

وأضيق في عطر ويجور ومترو خافت وموسيقى وشراب كالرحيق ، وأنفاسها

بقايا أحلام وسحر .. وأهمس ..

- أبدأ أنا معك .. من سيد ، ومن ألف سيد يا حلوة ؟ : أنا لك .. أنا

لك .. أنا لك .. !

والمترو يصبح في جلبه ..

- أنا لك .. أنا لك .. أنا لك ..

وتتأود وتهمس ..

- يا مجنون !

ويعود المترو من جديد بصبح :

- يا مجنون .. يا مجنون .. يا مجنون !

يا إلهة المتعة ، يا إلهة العذاب ، يا إلهة النسيان ، بربك اللحظة فهو صديقي .. وأنا لا أريد أن أنساه .. عفوك .. اتركي لي ألا أنساه .. حتى وسط كل متع الدنيا وملذات الوجود لا أريد أن أنساه .. فهو لم ينسني وسط كل أنواع تعس الدنيا وضنك الوجود ، أبدأ لم ينسني ، وأنا لا أريد أن أنساه .. وبه اسمه وصمة ، حتى للمرأة المباحة اسمه وصمة ، لا تريد أن تعرف أنها عند إنسان يعرفه .. يا ضياعك يا صديقي ! يا ضياعك ! .. وتمضي اللحظة الحلوة ، وأشرب كأسى ، وأذكرك ، وحدى أذكرك .. فهى لا تريد أن تعرف أنني أعرفك .. عفوك .. فهى تتخاف السلطة ورجال السلطة وآذان السلطة وشفاه السلطة ، ولكنها تحب نفودى ، وأنفاسى ، وكلماتى المحمومة ، ولمسة يدي الصارخة .. بكيت حتى غدا البكاء سعارا يحرق القلب والأنفاس واليد والجسد .. ويحى من الجسد ! اعذريني يا حلوة فصديق غائب لا يحيى ، وحين أذكره أنسى ضياعى وضياعك ، وأحب ، ويحك أن أنتهى العفن .. واسمك كالصدود ، كالسحر ، كالظلم ، ولكنى صاحب الظلم المسحور ، صنع بالحكمة ، ويوح بسره للحكمة ولا أنساك .. ويصبح المترو فى حركته الصاخبة وهو يشق الهواء شقاً ..

- لا أنساك .. لا أنساك .. لا أنساك !

- تسمع .. ؟

- ماذا ؟

- سيجارتك مشتعلة ، وليس معى كبريت ، هل أشعل سيجارنى

منها .. ؟

- تفضل ..

- أرجو ألا يضايقك هذا ..

- أبدأ تفضل ..

- شكراً ..

والمترو يصرخ وعجلاته تتر ..

- شكراً .. شكراً .. شكراً ..

ويقول المذيع .. صديقك تعرفه .. يقول فى نهاية برنامجه المسجل من

المدينة الجريح :

- شكراً .. شكراً .. من مدينة السويس ..

وأغلق الراديو وتثور فى قلبى عواصف ، ويتفجر إعصار ، وتطفر إلى عيني

دموع .. هى دموع الغيظ والذكرى والأمل المخبوق وأنه مأفون ، لعله مأفون

من بدرى ؟ .. فالمأفونون يندون كل حكمة فى دنيا لا رجال فيها ولا نساء ..

ولا وجود إلا لأشباه الرجال وأشباه النساء . !

- ألا ترى الخنفس . ؟

- أخفض من صوتك ربما سمعتك ..

- وماذا فى أن يسمعنى ؟ ألم يطل شعره كالنساء ، ليمسح همس الرجال عنه ؟

- لا تنس تأوهات النساء حوله ..
- أشك ..
- أنت لا تعرف النساء ..
- ربما .. ولكن حاذر ، فهو يلتفت ناحيتنا ..
- ورق ورق ..
- قاطع التذاكر ..
- هو بعيد في آخر العربة ..
- لا يمنع هذا أن نعد له النقود ..
- وسط هذا الزحام كيف يمكن أن نعد له النقود إلا إذا أردت أن ترشد  
النشالين إلى مكان المحفظة . !
- المحفظة .. قل يا باسط ، ليس فيها إلا قروش ! وهل هناك الآن  
نشالون ؟ . وإن وجدوا فللهم أرزاقهم أو قروش . !
- حتى النشالين ..
- حتى النشالين يا سيد ..
- ورق .. ورق .. ورق ..
- والمزرو يأكل الهواء أكلاً فيصيح الهواء تعساً وألماً والمزرو عجلاته تصيح في  
رتابة ..
- ورق .. ورق .. ورق . !

• • •

أخى الصديق سيد .. هل تعرف معنى السأم ؟ . أن يغدو كل شيء ككل

شىء ، حتى صدر امرأة وبقايا كأس وازدهار وردة ، وبسمة عذراء ،  
 لاشىء . . لاشىء . . وإنما سأم وعدم وموات ، والعرق ينداح على الجباه  
 وتحت الشعر عند الرقبة ، وتفوح رائحته من الآباط روائح وروائح . . والعربة  
 تهتز وتجرى ، تهتز وتجرى . . وقاطع التذاكر بصيح وهو يجبط فوق أعمدة  
 العربة الحديدية . .

- ورق . . ورق . . البك ورق . . الهام ورق . . ورق ورق . .

صدق ، فما نحن إلا ورق . . ورق . .

وأنت تعرفه كان صاحباً لك قال وهو يتحاشى أن ينظر في عيني . . .

- لم أره . . فقط كنت أمر عبر المدينة الغربية ، وسألت عنه وعرفت أنه

بجير وأنه ناجح . .

ولم أره . . أقسم ، لم يكن هناك داع لأن أراه ، فنحن كما تعلم نعمل في

حقليْن منفصلين . . لم يكن هناك داع بالمرّة . . وتلفت حوله وفي عينه نظرة

أرنب مذعور ، وحركته حركة عصفور يتأهب ليفرد جناحيه ويطيّر والرعب يهز

قلبه الصغير . . وهزرت رأسي وقلت :

- أفهم . . مالك وله . . ؟

قال وهو يرفع صوته ويفرد صدره :

- ليس له حق فما فعله شىء زائد على الحد ، ولست أدري كيف أقدم

عليه ؟ . لا . . لا . هو مخطئ . . مؤكداً هو مخطئ . .

ويحشت عن عينيه فلم أجد لها ! فقط صدمني شموخ الأنف في ترفع وهزة

الكتف في تعال . . وأطرقت برأسي وصمت . .

آخر الليل كنت تأتئ منكس الرأس محنى الظهر . فى الوجه قتامة وعند العينين ذبول . . ولكن الأنف أشم والبسمة المرسومة تتحدى ، وتقول فى صوت صاحب هو مزيج من التعب والألم والمرارة والعناء والخوف والتحدى واليأس . .

- التاكسى لم يكمل ثلاثة جنبيات اليوم ، ومع هذا جيت القاهرة من أقصاها إلى أقصاها . . أسطى إلى الزمالك . . من هنا يا أسطى . . قف يا أسطى . . فاض يا أسطى . . بين السرايات من فضلك . . البيت الثالث على اليمين . . وظهري يوجعنى ، وآلام عرق الشا تفتك فى فتكاً . ! وابن الكلب حاف ومعه قفة . إمبابة يا معلم ، واضبط العداد . . فنحن لا نأكل من حركات السواقين . . تأخذ سيجارة ، وحياة النبي إنت مجدع وأفندى متعلم كمان ! . تعيش المجدعة . . عندك هنا . . تأخذ فخذة (ضانى) من الجزار معنا . . لحظة يا معلم وتكمل المشوار . . المزاج مزاج . . تأخذ سيجارة . . والله أفندى وابن أصول ما هى الأيام ترمى ابن الأصل . . يا سلام يا زمن . . ميمناً يا أسطى على إمبابة . .

والمترو يصيح فى رتابة . .

- أمبابة . . أمبابة . . أمبابة . .

وتصرخ المرأة فى عنف :

- أرجوك . . حاسب . . ابعده قليلاً . !

ويصرخ الرجل فى ضيق :

- يا مدام . . أنا بعيد عنك . . لم أقرب . . ولكن المترو يدفعنا فى

حركته . . . فأرجوك . . اعذرى . .

وتصرخ المرأة في عنف وكأنها لم تسمع . .

- أرجوك . . حاسب . . ابعد قليلاً . .

ثم تزيد قائلة في شراسة :

- أليس في هذا المترو رجال يغارون على النساء . ؟

وكانما أثارَت معركة . . صاح واحد من نهاية العربة لم ير شيئاً ، ولم يسمع

الإكالات المرأة الأخيرة . .

- النذل . . أليس له أخوات ؟ أليست له زوجة ؟ . ألا يفهم ؟

ألا يحس . ؟

وصاح صبي عند الباب وجهه اندس بين ردفى امرأة وساقى رجل عجوز . .

- أستغفر الله العظيم ، لا يستحى ، لا يستحى أبداً ، وهو كل يوم يفعل

فعلته هذه في كل مترو ، وعند كل صباح . . يا سبحان الله العظيم . !

ومصمست امرأة بدينة عجوز درديس شفتها وصاحت بصوت ملاً العربة

كلها :

- جيل ملاعين ، لا حرمة للحرمة . . أين نذهب يا الله ؟ أين نذهب

وهؤلاء الكلاب ينهشون لحمنا في كل مكان ؟ . يا سبحان الله ! . . يا سبحان

الله . !

وهمس صبي لامع العينين متوفز الحركات مضطرب الشعر :

- تظن نفسها امرأة . . !

وقال آخر يضم كتبه إلى صدره ، ويحبل نظره حوله في قلق كأنما يخشى أن

يظهر له الناظر من وراء أى مقعد أو من خلف أى راكب . .

- الغلطة غلطتنا . .

فعاد الفتى العريض البسمة الحلو العينين المترجج الشعر يقول :

- غلطتنا أو غلطة الواقف وراءها . . سيان هي دردييس . . وأن تقول هذا

الكلام يعنى أن هناك من أخطأ . .

فهمس صديقه الخائف وعيناه تدوران فى قلتي :

- الغلطة غلطتنا . . !

وعند الباب ولد وبنت ملتصقان ، يهسان ، الشفاه عند الشفاه ويدها تعبت

بصدره ، وقيصه مفتوح وشعره الكث مباح لأظفارها الملونة الحمراء . .

وقال الولد :

- لا تنظر إليه هو فتوة المدرسة . .

وهمس صاحبنا المرتجف هيباً وجلاً :

- ولكن من التي تقف معه ؟

- ألا تعرفها . .

- لا . .

- هي بشنة أجمل بنات المعادى ، وأكثرهن شقاوة لا تنظر إليه وإلا ظن

نظرتك تحدياً .

- ولكنها تلعب فى صدره وشعره . .

- أتركها وانظر إلى . . وقل لى ماذا فعلت العجوز الدرديس . . ؟

- تلتصق بالأستاذ أمامها ، وبالمعلم خلفها ، وبالولد التلميذ إلى يسارها ،  
وبصاحب اللبدة إلى يمينها ! ومع هذا أسمعها هي تصيح من جديد . .  
ومن وسط العربية جاء صوت العجوز الخاد :

- جيل ملاعين . . أين أيامنا ؟ . . لم يكن رجل يستطيع أن يرفع عينه إلى  
سيدة ، كان يقف لها لتجلس في الترام وفي الثورنيكروفت . . لا لم يعد في هذا  
الجيل رجال . .

وتنحشر بين رجلين وتشهد . . وتلون عيناها ، وتدفع كنفها إلى رجل  
وساقها إلى رجل ، وعجزها إلى رجل ، وصدرها إلى رجل وتهمس في  
صخب :

- لا ، جيل الرجال انقضى . . عشنا ورأينا النساء يقفن في القطار . .  
يا بؤس الأيام ! ! .

• • •

تعسى عليك يا بؤس الأيام ! . . وأنت وحدك هناك تصنع الكلمة ،  
وتضع إلى جوار الكلمة كلمة لتخلق مشرقاً وعزة ، وتحمي كياناً وصموداً وتقول  
وجداناً ملائك فأضجرك . . يا تعسك ! ما أبس أن نقول ما في قلوبنا هذه  
الأيام ! ما أتعس أن نعيش ما نؤمن به ! كذباً يلفق حول الكلمات فإذا هي  
حبال من حرير ، لا بل من كتان مصرى أصيل يحوط العنق ، ويضغط مرة في  
رق ، ومرة في عنق ، ولكنه يضغط ، ويضغط والهواء يروح ، والأنفاس تنفر  
وتتحشرج . . . والعمر يضيع ، ويصيح كلب . . !

- خائن فاشنقوه . . !

وتصبح مومس .. لم تجفف أسافلها بعد أن تركها آخر عميل ..  
 - عفن ، هو عفن .. اشتقوه فقد كذب الحديدو ، ورفع يده ضد  
 السلطان ، وصاح بكلماته يشتم الملك ، اشتقوه ثم اشتقوه ! فهو عاهر ! هو  
 عاهر ! هو عاهر !

لحقى عليك من العواهر .. قطعن الأنامل حين بدأ محبباً يوسف ، أغضضن  
 الطرف حين اشتاق فرعون إلى امرأة إبراهيم .. لحقى عليك من بلدة تعيش  
 بأسافلها ، من قوم أحبوا أسافلهم فعبدوا الإله (مانو) وقدسوه وأقاموا له  
 المعابد ، ثم ركعوا لا يقفون أبداً .. لا يقفون .. !  
 والولد يقول :

- الغلطة غلطتنا ..

والقطار يهتر ويصرخ ..

- غلطتنا .. غلطتنا .. غلطتنا !

وتمر أعمدة التلغراف .. ورجال منحنون أمام مساحات من الخضرة  
 الممتدة ، وأبقار تضع رءوسها وسط الخضرة ، وصبية فلاحه حلوة ترفع يدها  
 ونحبي القطار بمنه ويسرة ..

ما أحلاها يرح هواء الصبح ثوبها ، ويلعب نسيم الصباح بنجصات  
 شعرها ، والقطار يمضى .. ويمضى .. في إصرار .. لا يعرف التوقف  
 ولا السكينة .. وهو يصرخ حين تحز عجلاته بالقطبان ..

- هي غلطتنا .. هي غلطتنا .. هي غلطتنا ..

وأنت تعرف جيداً أنها غلطتنا ..

أم لا تعرف . . !

تعسى عليك لو كنت نسيت ! . يا تعسى عليك ! . فالنسيان يقتل كل شيء . . النسيان يضع ما بقي في قلوبنا من قبح ، وما في حلوقنا من عفن وما في أفئدتنا من مرارة . . ويوم نفقد هذا كله نفقد سبب أن نعيش . . أن نوجد . . أن نحيا بين الآحياء . .

تقول وهل نحن نحيا ؟ . أقول بل نحن الحياة يا صديق . . نحن الحياة . .  
- بعلاوة المصنع هذا الشهر قلت أشتري كيلو ريش . أشويه مع الأولاد ونسهل .

- ضاعت العلاوة . .

- ولا يهم ، المهم أن نحس بشيء من التغيير ، أن نحس أن لنا وجودًا . .  
أنا نعيش ، أن شيئاً جديداً يحدث في حياتنا . وحياتك جلستا في البلكون وأوقدنا الفحم وشوينا اللحم . . وأخذ الأولاد يتبارون في أكل اللحم الذي لم يتم شواؤه ، والصراخ والزعيق ، وكانت جلسة ليس كمثلها جلسة . . !  
- تعب سنة نضيه في يوم !

- ياسيدى وكم ضيعنا ! . .

وأنت وأنا ضيعنا ، ياكم ضيعنا ! . تعس على ما ضاع منا باسم الكلمة واسم الشرف واسم الكرامة . . كل شيء شواء تفوح رائحته فتزكم الأنوف ، وتمتد الأسنان الشرهة تأكل كل لحم فينا . . كل عرضنا . . كل ما عندنا . . كل ما أبقينا من قدسية معنى الكرامة والوجود . . ويمضى . . يمضى الآكلون . . ونحن لا نكون إلا العظام المهترئة الفقيرة بالندف من بقايا اللحوم . . لا . . نحن

يا أخى سيد . . نحن لحوم لا يأكلها أحد . وإنما ترمى للكلاب . . . !  
وارتفع جرس المزلقان يحدّر العربات على جانبي القطار ، وأخذ القطار  
يهدي سيره ، والكل وقف وازداد الالتصاق ورائحة العرق والعطور الرخيصة  
وبقايا ليل مغلف بالأجساد . . وصاح واحد من العرب :  
- الزحام في النزول والزحام في الصعود ، والزحام في الوقوف . . ما هذا

يا عالم . . ؟

ورد عليه صوت وقع ينضح بشباب معتم جاهل :  
- الزحام للجدعان ، الولايا يفسحن الطريق للرجال . .  
وصاح ثالث في تهكم فظ .  
- البك رقيق يا رجال . . حاسب على قدمه يا أبا عبده . .  
وانطلقت ضحكة جماعية اشترك فيها أكثر من فم يخرج مع الضحكات  
دخان باهت عقيم .

ووقف القطار فاهتزت الكتلة الغليظة واندفعت من الباب الضيق في معركة  
بالأيدي والأكتاف والنكات الوقحة . . وتدافع آخرون يزحمون النازلين  
ويعوقونهم فهم أيضاً يريدون الصعود . . وتذكرك وابتسمت في هدوء . .  
فأنت لا تحب من يتزلون أبداً ولا تحب أن تكون بينهم ، وإنما تحب أن تكون  
من يزاحمون على الصعود ، وأخذت أتأمل الوجوه المندفعة من فرجة الباب  
تشدها كتل تريد أن تنزل . .

عينان لامعتان متوهجتان برغبة مكبوتة برغم الصباح ، ووجه امتلأ  
بمسحوق اختلط بعرق بدأ يتسلل عبر طبقات المسحوق الملون الرقيق ، وشعر

ارتفع إلى أعلى في ضمة كلها كبرياء وفي الوجه حزن غريب . . وفم أجذب من كل سن تلتصق شفته العليا بلحم شفته السفلى المتدلّية في إصرار أجرد لا معنى له ولا حياة فيه ! ويد تدفع ، وقدم تضرب ، وصيحات . . صيحات . . صيحات !

ولم يكن وجهك بينهم . . لم تصعد وسطهم برغم أن عشقك الأوحده كان أن نزاحم الصاعدين . . الوجوه الصاعدة وجوه ماتت . . جهاجم تبحث عن كفن كبير ، كفن جماعي محتوى الكل في ضمته القاسية الواحدة ، ويروح يعربد بهم في طريق مجهول أهوج ، ويتزلون كما صعّدوا صُماً لم يسمعوا . . خرساً لم ينطقوا . . حتى تعليقات الوقاحة وزقات الأقدام وبصقات النفوس المريضة لا يحسون بها . . قط لم أجد وجهك بينهم . .

ونزل كل الناظرين ووقفت أنظر إلى رصيف المحطة المزدهم المتماوج يبشر من كل شكل ، ألف عين تتطلع ولا ترى . . ألف أذن تتسمع ولا تسمع . . ألف ألف أنف تشم ولا تشم . لا وأبدأ . . ليست هذه محطتي . . ليست محطة الوصول . . ولكرتني يد رقيقة ، وقالت الفتاة وهي تحرك شعرها المتماوج الأثيل :

- أليست هذه هي محطة نهاية الخط . . ؟

حَيَّتْ رأسي وعيناي قد تاهتا في صدرها النافر المشدود :

- نعم . .

- لم لم تنزل إذن . ؟

ودهشت فنظرت إليها وفي عيني سؤال حائر . . !

قالت :

- قالوا لى : انزلى آخر الخط . . . وقلت لنفسي سأعرف محطة آخر الخط حين ينزل كل الركاب . . . فأنا كما ترى غريبة عن المدينة ومواصلاتها . . . وقد نزل الكل إلا أنت ، ولست أدري الآن : هل هى محطة آخر الخط أو هى محطة هامة ينزل فيها الركاب . . . ويتحرك بعدها القطار إلى محطة أخرى ؟  
فى الصوت موسيقى حلوة . . . لها رنة وفيها لدغة وغنة ، ومع كل كلمة بموج شعرها فوق كتفها ويهتز صدرها بكل نرائه وعريه . . . وقلت :

- هذه آخر محطة فانزلى . . .

فهمت وهى تهز ردفها :

- وأنت . . .

وقلت :

- لا ، وأنا أعود . . .

- أنا غريبة عن البلدة ، تستطيع أن تدلنى ، فأنا لا أعرف إلا عنوانا أعطونيهِ على ورقة . . . ولو كنت معى لاهتديت إليه . . . !  
همت وأنا أقتل كل نازع فى قلبى وجسدى وخيالى الجامح . . .  
- ولكنى لن أنزل . . . !

وهزت كتفها ونزلت ، ونظرت إلى نظرة غريبة ، ثم رفعت كفها اليمنى فى تحية وداع ، وعند شفيتها سخرية ، ومضت . . .  
وولفت عند باب القطار وحيداً ، والقطار خلنى ملآن ، وبين الحين والحين تدفعنى كتف إنسان متسرع ، يريد أن يصعد ، ويحى ! ما أكثر متسلقى الأبواب

المفتوحة في هذه المدينة . . . !

ولكنك لم تكن في انتظاري في المحطة ، بل لم يكن هناك في انتظاري أحد على الإطلاق . . والمحطة نفسها غريبة . . وضجة المدينة الصاخبة أسمعها من بعيد ، كلها لهاث وسباب وتجديف وهمهات مريضة حمل أجيال وأجيال من الموتى . . أصواتهم تأتي من الجبل البعيد عبر الترامات وكلاكسات العربات وتريق الأتوبيس وصياح الباعة ، تحتج كالأهات الشريدة الصامتة . . لا يسمعها إلا أنا . . وأنا واقف وحدي ، والقطار بصفر ليبدأ رحلة العودة من جديد . . .

• • •

تعسى عليك ، كل شيء يبدأ من جديد ، كل شيء ، كل شيء ، يا تعس الأيام . . اتمضى حاملة الحيوية والشباب واليقظة ، ولا تأتي إلا بالرتابة والعفن والضياع ، تعس عليك ، وعلى التائه الشريد ! . . لا يعود . . لا يعود . . لا يعود . . ! وتدور عجلات القطار من جديد تردد مع قلبي . .

- لا يعود . . لا يعود . . لا يعود . . !

ويمضى القطار ويصبح صوت حاد لا مرأة بمدينة ينداح عرق الضحى فوق

جيبها المجمع :

- جيل ملاعين .. لا حرمة للحريم . . أين نذهب يا الله ؟ . أين نذهب ؟

وتردد عجلات القطار التريق فوق القضبان بصوتها الصدى الأجوف

الحزين .

- أين نذهب ؟ أين نذهب ؟ أين نذهب ؟ .

وأهمس لنفسي في استسلام وصمت :

- يا الله ..

وتدوى صفارة القطار وأمضي معه وحيداً وأنت بعيد .. تعسى

عليك .. !

أنت بعيد ! . أنت بعيد ! . أنت بعيد ! .

وتقول عجلات القطار :

- أنت بعيد ! . أنت بعيد ! . أنت بعيد ! ..

\*\*\*



## اليد والقلم

أيا بحر لو كنت الكرم كما ادعوا  
قديماً لألقبت الجواهر للناس  
وحليت منها العاطلات على الحلى  
من (اللاء) لم يسعدن بالثير والماس  
ولم تدخرها كالشحيح لما رق  
تدلى بأمراس إليها ونيراس

عباس محمود العقاد

كيف تمسك هذه اليد الرقيقة بالقلم لتخط به الكلمة . . يا ضياعي إن  
غرست سن القلم في قلبي تبحت عن مداد تخط به كلماتها . . ساعتها لن يبرأ جرح  
أبدأ . . سيظل ينزف دمه بحثاً عن سن قلمها فإن نسي سن القلم نبع مداده ،  
نزف القلب إلى أن يجف ويموت . .

وهي سن قلم حاد . . غرسته صاحبتة في الرمال فأخرج حصى وغرسته في  
الماء فأخرج موجاً ، وغرسته في الطين فأخرج قوالب طوب مرصوص ، لهذا  
خرجت إلى الحياة وهي تبحت عن نبع دم يفوص فيه سن قلمها لتعرف كيف  
تكتب الحياة ، كيف يمتزج الدم بالروح في معنى الخلق والإبداع . .

كيف تمسك هذه اليد الرقيقة بالقلم لتخط به الكلمة . . يا ضياعي إن  
عرف القلم سر الكلمة . . ساعتها تدور الكلمة وتدور . . ومن حيث بدأت تعود

فأنا غرست سنّ قلمى فى الرمال . وحصاد المشيم حصادى ، وغرسته نائها وسط  
الدوامة الصاخبة فى اللجة ، وغناء النهر مادونت كلمائى وآلاف من جيف  
وطفلٍ ونفايات وقاقم زائفة لا أجد فيها أبداً جنّ سيدنا سليمان ، أو عفاريت  
آصف ابن برخيا أو اهرمن قيده طهمورث وقذف به فى اليم مطلسماً بأقدس  
الأسماء . . وإنما غرست سن قلمى فى الطين ، والطين مع وقع سن القلم ، غدا  
مليحاً ، وتاه سن القلم بين الملح والقصدير ، وفوق صاح طائر البطريق ، وانهمز  
قارب الملاح فتحطم فوق صخر اليم ، وغرقتنا فى دوامة من طين ، كلما صارعنا  
لنخرج منها ابتلعنا ، وغاصت أقدامنا ، وصارعنا ، وحاولنا أن نخرج من  
الأرض الملح ، من الأرض الخراب ، من جبال الملح والقصدير ، وغاصت  
أفخاذنا والتبت جروحنا وصاحت بنا فصرخنا ، واندس الملح فى ثغرات  
الجروح التى لم تلتئم فصارعنا وضربنا بأيدينا الهواء ، وضربنا بأقدامنا بطن  
الأرض ، وابتلعنا الطين حتى بطوننا ، وأجهضت ألف حامل مخصبة معطاء  
وانفجر من الأرحام دم أسود ، وغطى السواد على بياض الملح ، ولون بقتامه  
لمعان القصدير ، وغصنا من جديد إلى حد الصدور . . وصحنا ولم يسمع أحد  
صباحاتنا ، وبكينا ولم يخرج بكاؤنا من صدورنا . فقد كان الطين الثقيل يضغط  
على صدورنا فيحبس الأنفاس والكلمات ويقبض على نبض القلب فيكاد  
يتوقف ويكف ولا ينبض من جديد . . ويح القلب ، يكف ويصمت وتموت  
دقاته الرتبية العرجاء ثم تتوقف ، تصارع حيناً وتصرخ ، ثم تلهث وتتوقف  
ويرتفع المد الحيف إلى الرقبة وتلهث . . كأننا نجرى ألف ميل فى ثانية ، والهواء  
يتحسرج ، وهو يتوقف ثم يصارع ، ثم يصل . . ثم يتوقف من جديد ،

والدموع تظفر من العيون المقهورة التعسة ، من العيون المريضة المشرفة ، من العيون التي تموت . . . تموت . . . تموت . . .

والطين يقف على الفم ، على الأنف ، على العينين ، على الجبهة ، ويضيع كل شيء في غمار الطين . ويموت كل شيء في طوفان الطين ، يتخلل الشعر الميت ، الرأس الميت ، المخ الميت ، عفواً . . . مات كل شيء . . .

ويحي . . . كيف مات . كل شيء؟؟ أعرف ، تركت الطوفان يغمره ، يأكله ، يضيعه ، يبتلعه ، ثم يلفظه نفاية فوق نفايات ، بقايا فوق بقايا . . . صديداً من جراح ملوثة لا تلتم أبداً . . .

كيف تمسك هذه اليد الرقيقة بالقلم لتخط به الكلمة . . . يا ضياعي إن عرف قلمها سر قلبي ، سر العجز والتعس . سر ألف مدخنة نفتت خلاصة دم ألف عامل ، في ألف يوم . وتكومت كل الخلاصات نفاية حضارة تكومت فوق قلبي فأعجزته وشلته . وقالت له كلمات لا يعرفها إلا هو . وهو وحده دون كل القلوب التي ترى المجد في الدخان ، المجد في المصانع ، المجد في دوران آلة العصر . . . سر العجز التعس . . . سر ألف مطبعة نقشت رياء ألف كاتب وكاتب تجمعوا حول الآلة يكشفون عهدهم ، وقوادتهم وابتدال كل معنى للإنسان فيهم . أمام النجاح . أمام الرضاء . أمام العلاوة السخية ، أمام الانتشار الواسع . . . أمام الخدعة تدخل كل بيت . وكل عقل ، وكل وجود . أمام زحف الزيت الزائف إلى عقول أبنائي وبناتي . يثقل على أفهامهم وأفهامهن ، على وجدانهن ووجدانهن ، على عواطفهم وعواطفهن . . . ياليتني أستطيع أن أصرخ بالكلمة فيهم وفيهن . ولكن أين أنا ؟؟ ومن أنا ؟؟ وما صوتي وسط الأوراق

الصفراء تغزو عالمهم ؟ عالمهن . . وتنتشر حوادث الاغتصاب . وتكثر حكايات الدعارة والشقق المفروشة . وجرائم بوليس الآداب . . وجوازات الأقطار الشقيقة . وتجار اللحم الأسمر الحزين ، تكفيه كسرة وقطعة جبن وبصلة ، وتقتله كلمات العاهرين الفاشلين الحاقدين المأجورين السفلة . . فترين السراب وتصور جنة العهر المطعونة في وجودها على شاشات السينما والتليفزيون ، وفي ميكروفونات الراديو وأقلام الكتاب . . كتاب العصر المأفون . . ياتعساً يا كم قال كتاب العصر المأفون ، أبطال العصر ، العاهرات قرّة عين العصر ، والخونة أصوات العصر ومفكروه ، والليمونة لا يبقى فيها شيء بعد العصر . . ونحن نعيش برغم أننا بعد أن فرغت الليمونة من كل رحيق ، نعيش في بطن الحوت مع يونس . . نردد الدعاء لا نسمعنا أحد . . فقد بلع الحوت الذي احتوانا في جوفه حوتاً كبيراً وابتلع الحوت الكبير حوتاً أكبر ، وغاص بنا الحوت الأكبر في أعماق البحار فلا يصل صوتنا أبداً . . لن يصل صوتنا أبداً . . فعند الشاطئ أسماك القرش تأكل وتوكل . وتُفرض شريعة أسماك القرش ، الدماء النازفة تجذب الأنياب المتعطشة . . اللحم المبدول يستهوى الأسنان المستونة ، والافتراس دوار . فكلُّ يفترس كل شيء ، وكل شيء يفترس كل حياة ، والحياة مفترسة منهوكة مبدولة ضائعة ، وما نحن ومن نحن إلا الافتراس المزدوج المبدول المتاح ، والدائرة تعقبها دوائر . ولا مكان إلا للدوائر الصاخبة المسكينة منهوكة الضائعة . . ووسطها يسبح سمك القرش . . ووسطها يضحك سمك القرش ، ووسطها يسود سمك القرش . .

يا أنت ؟؟ يا من نسيت من أنت ؟؟ يا من أضاعك الصخب الخبيث

المزرى قُل لي . كيف تمسك هذه اليد الرقيقة بالقلم لتخط به الكلمة . يا ضياعي إن غرست سن القلم في عقلي . تريد أن تقول كلماتها فيه . أن تغرس كلماتها في صميم بؤرتي . أتجدد كما تظنه وتحسه ؟ . . أبعد كل هذا يجد سن قلمها عقلا يتغرس فيه . تعساً . لا . العقل تاه قبل أن يأتي سن القلم . إن وجد فيه عطاء ووجوداً فهذا سر القلم وسر سن القلم ، وليس بالعقل بقية من عطاء . . أبداً . . يا صاحبتى من يدري . . لعلك وأنت تبحثين عن مداد لسن قلمك في قلبي ودمي . في عقلي ووجودي . في كلمتي وسري ، لعلك . . نعم لعلك وأنت تبحثين عن مداد لسن قلمك تمسين الحقيقة فيبوح سن قلمك بكل ما أخفيته أنا عبر السنين والآلام والتعسر والعناء . . لعله يزيح الستر عن سر طال إخفاؤه وكتبته ، عن حديث لم يعرفه أحد .

ولكن سن قلمك وهو يغوص في ، يفجر شلالات رهيبية من ضوء ونور ، من حب وكرهية ، من صحة وعفن ، من موت وحياة . مني . أنا الذى ضاع . ومنى أنا الذى يمكن أن يوجد من جديد . . أتعرفين . .

ألف امرأة عرفت ولم تشزع واحدة قط سن القلم . ألف امرأة أعطت ولكن واحدة لم تكن تبحث عن المعنى والجوهر قط . . والوجود . . ألف امرأة فرشت وجودها أمامي ، ولكن امرأة منهم لم ترسل حين كانت بين يدي نبضها إلى نبض القلب . . نجواها إلى نجوى العقل ، سبحاتها إلى هيولا الوجدان . . فلم أعرفها ولم تعرفني . ولم يعرفني أحد . . لماذا جئت . . ؟

من أنت يا صاحبة السن المشرع . من أنت يا من تعرف سر الكلمة . من أنت يا من تحاسب الوجود . . وترصد الأنفاس ، وتعد نبضات القلب ؟ ؟

غريباً أنظر إلى عالمك . ، تائباً أترك نفسي لذيالك ، ضائعاً أتلمس الهدى على  
يديك . يداك رقيقتان صغيرتان . ضعيفتان ، ما هاتان اليدان وما السؤال . .  
وما الحب . . وما المعرفة ؟؟؟

أبعدي يديك عني . . أبعديها أرجوك . . فما أنا والحقيقة . أكره الحقيقة .  
أخاف الحقيقة . . أكره . . وأخافك أنت ، أخاف يديك . . بل أخاف يدك  
المشرعة بالقلم . . في شفتيك عطر ألف كاهن عرف سر الحب والحكمة والفن . .  
فزجه كله في كهنوته السحري ليصنع عطرك أنت . أنت يامن كنت يوماً  
وتكونين ، يامن وجودك الحقيقة والخيال والحلم العطري المغيش ، باحتضار  
الغروب الخالم المبهم السحري . .

أنت . . يامن كتب الكاهن شرك فوق البردية . ثم أودعها التيمة  
السحرية . وطواها على لفائف التابوت لتظل سر الموتى الذي لا يعرفه أحد . .  
يا نفر . . يا ابنة حورس يا ابنة إيزيس . يا عبدة صنم مقدس ، يا إلهة كهنة  
المعبد السحري في أعماق منف الخفية . . أنت ، يا سحري ، يا قدراً أخافة . .  
وأخشاه . . أبعدي سن قلمك عن قلبي . .

فقلبي نفت كل دمه منذ حين . ولم يعد فيه دماء ترضى سن قلمك الباحث  
عن مداد لكلماته . قلبي جف . . وما لك أنت والتبع الذي جف ، مالك أنت  
والمعين الذي نضب . مالك أنت والعمر الذي انتهى . .

يا أنت . الربيع أنت . الحب أنت ، الحياة أنت . . اغرسي سن قلمك في  
قلب سوسنة حب ، في قلب نجمة الصباح ، في قلب زهرة الحقل الخضراء  
المشرعة المعطاء . أما أنا ، يا حلوة ، فانتهى . وجف . ضاع ونسيه الناس

والزمن . . حرام أن يبحث سن قلمك عن دم تجمد وتجلط . ومات . . حرام أن يبحث سن قلمك من عقل أتاهه عن وجوده أنه لم يشيع ، فضل طريقه وضاع ، حرام أن يبحث سن قلمك عن وجدان بحث حتى كلّ وتعب ، عن الحب والعطاء والحريّة ، حتى عن مداد يخط به عطاءه ليحكى عن سرى وسر وجودى . .

فا وجودى إلا ما فات ، وما كلماتها إلا ما هو آت ، وبيننا عمر ووجود وأمل ضاع ، وأحلام باهتة وتعمس . .

وعفوياً . . قد أحب فيك الشباب والإصرار والأمل .

وعفوياً . . قد أحب فيك المغامرة والثقة والشجاعة .

وعفوياً . . قد أحب فيك الإصرار والوجود والعقل . . ولكن ما أنا

وأنت ؟ . . الغد يشرق وأمس يضيع . . وكل لحظة غروب يودّع فيها رع

مملكته . ولا يبقى منها إلا الظلال والأشباح والهمسات البعيدة الخافتة . . للملئى

ياحبي بقاياى . إن كانت ما تزال لى بقايا ، للملئى الأحزان والهزائم والتعمس ،

للملئى أحلام العزة والعطاء والفن والإصرار . . للملئى ما بقى منى . .

ولم يبق منى إلا الأشلاء فقط . لن يفوز سن قلمك النابض الحلوبدم يصنع

حلماً ، يشيد قصراً ، يخلق نغماً ، فما فى أنا قد مات منذ زمن . . وأنت يا أنت

تأتين آخر الزمن .

هل ترضيك يا طموح الشباب والفن والجمال والثقة ، هل ترضيك عصارة

باهتة لإنسان مضى وولى ولن يعود إلا ذكرى . . يا تعسى . .

كيف تمسك هذه اليد الرقيقة بالقلم لتخط به الكلمة . . وباضياعى إن

غرست سن القلم في قلبي المرهق الذي يبس فيه معنى الحب والعطاء والكلمة ،  
فغدا صحراء التيه . . والربيع الخالي لاشيء فيه إلا الرمال السائخة .

• • •

كيف يا أنا تمسك هذه اليد الرقيقة بالقلم لتخط به الكلمة ، يا ضياعي إن  
تبحث عن مكان لسن قلمها في وجودي . ضاع وجودي وضاع سن قلمها إن  
بحث في كلمتي . أو في عقلي . لن تجد غذاء سن القلم ، لن تجد زاد رحلة القلم  
فلم تبق إلا البقايا والنفايات وأشباح الماضي الباهتة .

يا أنت حتى كلمة الحب تبدو عجوز مرهقة على شفتي . . فهي عند عتباتك  
تقف بائسة مشولة تنتظر الرحمة . . أو هي عندي غناء مريض تقطر فيه قسوة  
العمر والحمرمان ، وتشبث مريض بالبقاء ، برغم الزمن ، وبرغم إحساس  
العبث . .

فأنت أنت تبعثين الحياة ، تفرضين الدفء ، تعطين للوجود معنى تنسين حتى  
مر العمر ، وضياع السنين ، ولا زلت أسأل نفسي وأسألك ، كيف تمسك هذه  
اليد الرقيقة بالقلم لتخط الكلمة .

## حلم

بسم الله الرحمن الرحيم

( قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ،  
ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد  
ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، لكم  
دينكم ولي دين ) .

صدق الله العظيم

سورة الكافرون .

ليس هناك ائزان ، فقد الكون الاتزان واختلط النجم القطبي بالزهرة  
بالمريخ ، وصاح القمر وخاف ، وجرى فابتلعه المحيط ، ونام العالم كله في دنيا  
من الظلام والصمت الأزرق اللعين . .

مزدك كان إلهي يوماً ثم خسو وعشر ثم رضيت بالعجل أيسس ، وفجأة  
عرفت أنه إله السماء الولود ، وأنه حامى الخصب فكفرت به ومددت سكينتي  
إلى عنقه فجززتها ، وأرسلت لحمه إلى المصانع فخرج علماً أنيقة حمراء ،  
وتقيأت إلهي يوم شربت الخمر المغشوشة مع لحمه المحفوظ العطن . ، ونسيت أن  
أغلق مفتاح الراديو فظلت فيروز تغني والصابني وواحدة صوتها كالعفن فكسرت  
الراديو . . وهرعت إلى الشارع أختبئ وسط الناس من انتقام أيسس ، أعني  
خسوس . . أعني عشر . . بل لعلي أعني آمون رع نفسه صاحب الزورق الباهت

الغارق أبدأً في دنيا الظلام ..

تعباً .. أكلُّ أمتنا يفرقون في الظلام ؟ .. وكفرت .. وجدفت ..  
وأدخلوني السجن .. وهناك نمت .. أجل .. من جديد نمت .. فأنا دائماً أنام  
في انتظار الصباح ، والصباح لا يأتي أبداً ..

وتبحث أشعة الشمس الوليدة عن بيتي ، وبنى ضاع .. ليس لي بيت ..  
صنعته فوق الريح واشتدت الريح يوماً في يوم عاصف فاغيرت السماء ،  
ولم أعد أراه حتى ولا في الملمات السحاب الموهومة ، تصنع بيوتاً من ضباب ..  
ليس لي بيت .. صنعته يوماً فوق أشعة القمر ، ودار القمر دورته وتضاءلت  
أشعة القمر وتقلصت ثم ماتت ، ومات بيتي مع بقايا أشعة تموت ..

ليس لي بيت .. يوماً صنعته من زيد الموج الفائر ، ثم هدأ الموج .. واستقر  
البيت مترقفاً كالنغم فوق مياه البحر الهادئة تسبح في حلم أبدي غريب غرير ..  
ومن البيت خرج السمك المسحور ، نصفه إنسان ونصفه سمك ، وعندما  
وصل إلى الشاطئ تحول إلى حجر . وصرخت فهاج البحر وماج ، وعلا غضبه  
على صوت صراخى فأبرقت السماء وأرعدت وهطل المطر وابتلع الموج الهائج  
البيت ، فضاع في المم وغاص إلى أعماق مدينة النحاس المسحورة وسط المحيط  
الملعون .. ليس لي بيت .. يوماً غزله من شجرة القطن ورضعته من إفراز  
دودة القز ، ثم زيتته بغطاء أصداف الخليج .. وازدهر آمناً في حضن الشجرة  
الفارعة المقدسة .. التي احتضنت قبلي ألف قلب حائر تعس ، ولكن الشجرة  
امتصت ما فيه من دماء ثم ازهرت ورداً أحمر قانياً ، تضعه العذارى زينة فوق  
الأثناء المشدودة ، وفوق الموائد ليلة حب موعودة .. ثم أقبل الحطاب وضرب

بفأسه الشجرة فتزف قلبي دمه الباقي وناح . . ثم ضرب الشجرة فاهترت  
ومالت ، وتمزق بيتي وحملته الرياح إلى مدينة النحاس . . وصرخ البوق  
المرصود ، وصاح الديك المصنوع بالحكمة فوق السور ، فتدافعت السهام  
السكرية تمزق أستار بيتي وتكشف عريه . . وتداعى متحطماً . . أشلاء . .  
أشلاء . .

ويبحث عن قلبي بين الأشلاء والميزق . . ولم أجد إلا بقايا سيجارة محترقة  
وقطرات في كأس مكسورة . . وضاع حلمي الغريب . . عن بيتٍ ما في مكان  
ما ، تحت سماء ما ، في دنيا إله ما . .  
ودار جسدي ، حملته الرياح ودارت ، وارتفعت ساقاي عن الأرض ،  
تشبث بأطراف الجبال ، والتصقت بنتوات الأودية ، ولكن الريح اقتلعها  
ودارت بها ، ودار رأسي ، وفقدتُ الاتزان ، وفقد العالم كله حولي الاتزان ،  
وأخذت أدور وأدور ، وامتزج ألف بيت لي بألف بيت ، وذابت السحب السوداء  
في لجة من أمواج البحر العالية . وأكل المد كل شيء ، ثم انزاح ، وحين الجزر  
تراجع القمر فاصطدم بالزهرة والمشرى وامتزج بهم جميعاً النجم القطبي . .  
وغدا الكلُّ عجينة في يد عمجان مجهول في بلد مجهول يصنع رغيفاً غير ناضج  
لصيبة جوعى في قرية مجهولة . . إلهها ملعون . . نسيها ومات . .

## المحتويات

٧	المثلث الدامي
١٥	الزئزنة
٢١	في الطريق
٢٥	الكلب
٣٣	وناحت دون قبر
٤٥	يا على
٥١	الموردة
٦٣	الهمسات البعيدة
٦٩	أين الحب
٧٧	الصمت
٨١	خطاب إلى صديق
١٠١	اليد والقلم
١٠٩	حلم

١٩٧٩/٥٣٣٧	رقم الإيداع
ISBN ٩٧٧ - ٢٤٧ - ٨٩٢ - ٧	التبرقيم الدول

١ / ٧٩ / ١٦١

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)